السنة الخامسة عدد (٢٨)
١٥/ جمادى الآخرة / ١٤٢٠هـ

رسالة إسلامية منهجية جامعة

الأصالة

٢٨

عودة إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة

❖ بيان من هيئة كبار العلماء :

.. والتسرع في التكفير يترتب عليه أمور خطيرة: من استحلال الدم والمال، ومنع التوارث، وفسخ النكاح، وغيرها مما يترتب على الردة، فكيف يسوغ للمؤمن أن يقدم عليه لأدنى شبهة؟

وإذا كان هذا في ولاة الأمور كان أشد؛ لما يترتب عليه من التمرد عليهم، وحمل السلاح عليهم، وإشاعة الفوضى، وسفك الدماء، وفساد العباد والبلاد.

* قال فقيه الزمان محمد العثيمين:

"... الذين يريدون أن يكفروا الناس يقولون عن الشيخ الألباني وعن أمثاله: انهم مرجئة؛ فهو من باب التلقيب بألقاب السوء. وأنا أشهد للشيخ الألباني - رحمه الله - بالاستقامة، وسلامة المعتقد، وحسن المقصد".

* فضيلة الشيخ سعد الحصين:

إن الحكم بما أنزل الله شامل لكل ما أوحى الله إلى عبده ورسوله: ليبينه للناس وليحكم به بينهم أولا - وقبل كل شيء - في الاعتقاد، ثم في العبادات، ثم في المعاملات، لا العكس كما وهم منتحو الفكر "الإسلامي" ومستهلكوه.

فضيلة الشيخ الدكتور ربيع المدخلي في حديث عن الصدق:

.. وفي هذا عبرة عظيمة للذين لا يزكون أنفسهم بالتوحيد والإيمان والصدق والأعمال الصالحة !!

في هذا العدد.. في هذا العدد.. في هذا العدد..

* أصالة الأصالة في موارد النزاع
* حوار منهجي مع فقيه الزمان
* منهج شيخ الإسلام في كشف بدعة الخوارج
* بيان هيئة كبار العلماء في التكفير والتفجير
* أهمية الصدق وضرورته لقيام الدين والدنيا
* الفكر التنويري في الميزان

السنة الخامسة عدد (٢٨)
١٥/ جمادى الآخرة / ١٤٢٠هـ

رسالة إسلامية منهجية جامعة

الأصالة

٢٨

عودة إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة

تصدر في منتصف كل شهر هجري، ومرة كل شهرين مؤقتاً

■ أسرة التحرير:

الشيخ سليم بن عيد الهلالي ..... رئيساً
الشيخ د. محمد بن موسى آل نصر ..... عضواً
الشيخ علي بن حسن الحلبي الأثري ..... عضواً
الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان ..... عضواً

إخواننا القراء:

نرحب بكل مقال علمي رصين،
ونرغب في كل نقد هادف بنّاء
في (الأصالة):
منبر لكل مسلم مخلص داع إلى الحق..
- وفقنا الله وإياكم لكل خير -.

الاشتراكات

- المملكة العربية السعودية (٩٠ ريالاً).
- بقية الدول العربية (٢٥ دولاراً).
- أوروبا (٣٠ دولاراً).
- أمريكا (٥٠ دولاراً).

ثمن النسخة

الأردن (دينار)، الإمارات المتحدة (١٠ دراهم)، البحرين: (دينار)، السعودية: (١٠ ريالات)، الكويت: (٨٠٠ فلس)، أوروبا: (٤ دولارات)، أمريكا: (٥ دولارات).

صف وإخراج فني: مركز القلم - هاتف ٤٣٨٠٧٤٣

ترخيص دائرة المطبوعات والنشر برقم (٤ / ٣ / ١٣٢٨)

عنوان المراسلة

❖ **الأردن:**
عمان - مخيم حطين
ص. ب (٩٨)
رمز بريدي (١٣٧٨١).

تطلب (الأصالة) من

❖ **الولايات المتحدة:**
AL- QURAN WAS-SUNNAH SOCIET (QSS)
19800 VAN DYKERD
Detroit MI 48234-3354
Tel: (313) 893-3768
Fax: (313) 893-3748

❖ **بريطانيا وإيرلندا**
AL-Barakaat Salafi Bookshop
10 Field Gate - Street London
E1 1JU
Tel: 0207-3776628
Fax: 0207-2474662
Mobile: 0956-469588
E-mil: san,aani@hotmail.com
London . U.K

❖ **اليمن**
مكتبة الإدريسي السلفية - صنعاء - شارع تعز - قرب فندق الوطن - هاتف ٦٢٠٢٢٧ - ٢٦٣٩١٤.

❖ **الإمارات:**
مكتبة الفرقان - عجمان ص. ب (٢٠٢٨٨)
هاتف وفاكس (٤٤٤٤٣٥)

❖ وتطلب (الأصالة) من جميع المكتبات السلفية في العالم.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحَمْدَ للَّه ؛ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ باللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ـ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ـ .

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ .

أَمَّا بَعْدُ :

فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللَّه ، وَأَحْسَنَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُها ، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ .

- **فاتحة القول: أصالة «الأصالة» في موارد النزاع:**

التحـــرير ٥

- **تأملات قرآنية: فأين تذهبون:**

الشيخ هشام بن فهمي العارف ٨

- **الكلم الطيب: من أعلام نبوّته ﷺ:**

الشيخ سليم بن عيد الهلالي ١١

- **مباحث عقدية: الحكم بما أنزل الله فرض عين على كل مسلم:**

فضيلة الشيخ سعد الحصين ١٥

- **مناهج العلماء: منهج الإصلاح عند الشاطبي:**

الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان ٣٢

- **مصطلح وبيان: الفكر التنويري في الميزان:**

الشيخ د . محمد موسى نصر ٤٢

- **كلمات في الدعوة والمنهاج: من آثار السلف في الحكم على المرء بقرينه:**

جمال الحارثي ٤٥

- **الكتب تعريفاً ونقداً: مدارك النظر في السياسة بين التطبيقات الشرعية والانفعالات الحماسية:**

الشيخ علي بن حسن الحلبي ٤٨

- **التزكية وتربية النفوس: أهمية الصدق، وضرورته؛ لقيام الدنيا والدين:**

الشيخ د. أ. ربيع بن هادي المدخلي ٥١

- **في رحاب العلم: العلم والتعلّم وفضل العلماء:**

الشيخ د. صالح بن غانم السدلان ٦٣

- **قضايا المرأة المسلمة: كوني عتبة بيتك:**

أكرم بن محمد زيادة ٦٨

- **أخبار ومتابعات: حوار مع فضيلة الشيخ فقيه الزمان محمد بن صالح العثيمين - حفظه الله -:** ٧١

- **كلمات المحبين: العلامة المحدث الألباني بين الذابين عنه، والرادين عليه:**

عبدالله بن حسين الموجان ٧٩

- **من أرشيف الأصالة: الدعوة السلفية: أصولها.. مقاصدها.. أسباب النهوض بها:**

العلامة الألباني ـ رحمه الله ـ ٨٧

- **الفتاوى: بيان من هيئة كبار العلماء حول مسألة التكفير:** ٩٠

- **مسك الختام: الهوى:**

التحـرير ٩٤

أصالة «الأصالة» في موارد النزاع

● بقلم: التحرير

لقد أدركتِ «**الأصالة**» ـ بكتابها وأعضائها ـ أنَّ الذبَّ عن منهج السلف الصالح والمناضلة عنه من أعظم مطالب الدين ، وأنَّ الهلاك في اتباعه هو النجاة ، والألم والعذاب في مواضع الدفاع عنه هو الأمان ؛ فأجمعتْ أمرها ـ منذ صدورها ـ على ذلك ؛ فكان مدارُ مباحثها على بيان الحجةِ ، ودفع الشبهةِ .

حملت هموم الأمة وحاجتها للإصلاح والتجديد وفق قاعدةٍ علميةٍ ربانيّةٍ انطلاقاً من منهج التصفية والتربية ؛ فأبان الله بها الحق ، وأوضح بها المنهاج ، وقمع بها رؤوس أهل البدع والأحزاب .

ولهذا ما أوفى بـ «**الأصالة**» وصانها إلا من كان علمه متلقّىً من الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة ، **وكانت طريقته في الحمد والذم، والحب والبغض بحسب الموافقة للطريقة السلفية الأثرية .**

وإنْ كان الأمر كذلك ؛ فأهل الحق الثابت يُعرَفون تارةً **بموارد النزاع** بينهم وبين **مخالفيهم من أهل الباطل** ، وتارةً بإقرار خصومهم لهم ، ورجوعهم إليهم مذعنين للحق ، وتارةً بشهادة المؤمنين لهم ، لا سيما أهل العلم منهم .

والمبصر الفهيم يعلم أن هذهِ الرسالة العلميّة السلفيّة تستند ـ في شرعيتها ـ على هذه الاعتبارات الثلاثة جميعاً .

لقد نازعت «**الأصالة**» ـ عبر مسيرتها على أرض الواقع ـ أفعالاً شركيةً ، وألفاظاً كفريّةً ، ومقالاتٍ بدعيّةً ، وبدعاً عمليّةً ، وأفكاراً رِدّيّةً ، وتكتلاتٍ حزبيّةً ، وسياساتٍ ظلميةً ، وآراءً إلحاديةً ، وشهواتٍ فجوريّةً . . . .

لقد نازعت «**الأصالة**» جنس الباطل ، وطرائق أهلهِ في تحسينه ؛ فما كان منها ـ بحمد الله وفضلهِ ـ إلا الثبات ولزوم الثغر .

ومَن تكلّم فيها ـ **ممن هو غير نافع في نفسه** ـ ما تكلّم فيها إلا بسبب المواضع التي لم يتفق ـ هواه ـ فيها مع منهج السلف ؛ لسوء فهمه ، أو لسوء قصده ؛ وربما أفسدتِ الحزبيةُ عقلَه وقلبَه ؛ فجمع الأمرين وأربا .

فلا يضرّ «**الأصالة**» ـ بعد ذلك ـ كيد الحاسدين ، وانتحال المبطلين ، وتحريش الحزبيين الذين عقدوا **ألوية البدعة، وأطلقوا عنان الفتنة** ؛ فهؤلاء لا للعقيدة نصروا ، ولا لأعداء الدين دفعوا ، ولا للسنّة أظهروا ، ولا للبدعة قمعوا ، ولا للفجور أنكروا ، . . . كانوا ـ ولا يزالون ـ بمقاصد الدين يتلاعبون ، ولبدعة الخوارج يُمهّدون !

ولقد أثبتت مجلتنا ـ **السنيّة الأثريّة السلفيّة** ـ أنها تمثل الأصالة الحقة ـ بإذن الله ـ عقيدةً ومنهجاً وعلماً وعملاً من خلال مسيرتها العلميّة والدعويّة والتربويّة ، ومن خلال مواقفها الثابتة رغم قلة الأنصار وضعف الموارد والإمكانيات ، ورغم تكالب الخصوم وتآمرهم (!) .

ولم تأبه «**الأصالة**» يوماً بالرويبضات أدعياء العلم والمنهاج ، الذين ينعقون هنا وهناك ـ مع أهل الأهواء والبدع ـ على اختلاف مشاربهم ، وتعدد طرائق سبلهم ، ومجهولية موارد تمويلهم ؛ حينما يطعنون بهذه الرسالة المنهجيّة السلفيّة ـ ظلماً وعدواناً ـ ويحرّضون عليها العلماء ، ويتهمونها ـ والقائمين عليها ـ بشتى ألوان التهم الشنيعة ، والألقاب الفظيعة ؛ من إرجاء ، وتبعية ، ومتاجرة . . . إلخ .

ولقد أراد بعضهم **ركوب موجة الأحداث، وإدارة مجامع الفتن** ـ لا سيما بعد غياب العلماء ـ لصرف الدعوة السلفيّة عن أهدافها ومقاصدها الكبرى إلى أمورٍ كانت حلماً لكثير من الحزبيين الخلوف ؛ بعد إذ كان شيخا السنّة العلامة ناصر الدين الألباني ـ رحمه الله ـ ، والعلامة عبدالعزيز بن باز ـ رحمه الله ـ مانعين لذلك راصدين له . فما كان ـ بعد ذلك ـ إلا استهداف «**الأصالة**» ـ وهي الصحيفة العلميّة التي نشأت وترعرعت على حب الحق والحقيقة ـ لتنصرف عن مهمتها ومسؤوليتها في الدفاع عن المنهج الحق .

وهكذا أُريد منها أن تتخلى عن (**أصالتها**) لتؤدّي دوراً مشكوكاً فيه ، ربما خُطِّط له ، أو كان بإيحاءٍ من الحزبيين .

فما كان منها ـ والحمدُ لله رب العالمين ـ إلا أن تتميّز عن هذه الأدوار ، وتتجنّب هذه الأقذار ؛ لتعلن رفضها صراحةً وبوضوح ، آخذةً على نفسها العهد بوجوب لزوم ثغر السنة ، والقيام في نحور أعداء الله من كفرة ومبتدعة ، وردّ مقالتهم ، وإبطال مذهبهم ، ﴿**ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقويٌّ عزيزٌ**﴾.

لهذا لم يبق ـ لهؤلاء ـ إلا التشكيك بالأصالة والقائمين عليها وكُتّابها ، حين صاح قائلهم : إن «**الأصالة**» لا أصالة لها .

وهل مدار التأصيل ـ عند هؤلاء ـ لا يُبنى إلا على أساس الانحراف عن السلفية وأصولها ، ولا يُبنى إلا على شرط توجيه الطاقات ، وتسخير الإمكانيات لخدمة الاتجاهات المقموعةِ المقهورةِ التي ما خلت عن الكيد والتربّص بمنهج السلف القاهر المنصور؟! . . سبحان ربي إنّ هذا لبهتان عظيم ، وقول ظلوم . . . .

وهل فقدت «**الأصالة**» أصالتها ؛ لأنها تعلن أن الولاء لله وحده ، والاتباع لرسوله ﷺ فقط ، وأنّ الحق لا يعرف بالرجال ، وإنما بالدليل الهادي والبرهان القاطع؟

هل فقدت «**الأصالة**» أصالتها ؛ لأنها آثرت الحق على العواطف والحماسات والمجاملات على حساب الدين والعقيدة؟

هل فقدت «**الأصالة**» أصالتها ؛ لأنها أَبَتْ إلا أن تكون قراراتها نابعة من تلقاء نفسها ، لا تسير بإشارة أو بعبارة لا طمعاً ولا رهباً ؛ كشأن كثير من المجلات التي باعت أقلامها لأعداء الدين .

هل فقدت «**الأصالة**» أصالتها ؛ لأنها لا تحابي ولا تجامل ـ على حساب الحق ـ أحداً مهما سما وعلا وأُشير إليه بالبنان .

هل فقدت «**الأصالة**» أصالتها ؛ لأنها تستمد عونها ودعمها ـ بعد الله تعالى ـ من العلماء الربانيين ؛ أمثال الإمام ابن باز ، والإمام الألباني ، وفقيه الزمان ابن العثيمين ، ومَن سار على نهجهم ، وتحذّر من علماء السوء الذين يحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه ، ويبغونها عِوَجاً في العقيدة والمنهج والسلوك .

وأخيراً ؛ فـ «**الأصالة**» باقيةٌ لا يضرّها خذلان الخاذلين ، ولا إعراض المشككين ، ولا طعن الحاقدين الحاسدين ، وحسبها تزكية أئمة الدين لها ؛ كشيخي أهل السنة والجماعة في هذا العصر : ابن باز ، والألباني ـ رحمهما الله ـ وكبار علماء الدعوة السلفية ؛ كأمثال الشيخ محمد الصالح العثيمين ، والشيخ ربيع بن هادي المدخلي ، والشيخ مقبل بن هادي الوادعي ، وكبار الدعاة إلى الله ، ومنهم فضيلة الشيخ سعد الحصين المستشار الديني ـ في الأردن ـ لرئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء ؛ فها هو يقول ـ حفظه الله ـ :

«**... وهؤلاء الإخوة هم خير الدعاة . على بصيرة . في الأردن، ومن خير الدعاة على منهاج النبوة في العالم المسلم، ومجلّتهم خير المجلات الدينية . في رأيي . التزاماً بالكتاب والسنة وفقه الأئمة الأُوَل في نصوص الوحي اليقيني، والدعوة والتوحيد والسنة والتحذير من الشرك والبدعة، والبعد عن التحزّب الفكري والسياسي الذي ساهم في انحراف الدعوة إلى الله من الوحي إلى الفكر، ومن اليقين إلى الظن.**

وبما أن هذه المجلة تنتهج نهج النبوة في الدين والدعوة؛ فإنها أحقّ بالرعاية والتشجيع».

والله ـ تعالى ـ ولي التوفيق .

فأين تذهبــون

● بقلم: الشيخ هشام بن فهمي العارف

قال الله ـ تعالى ـ في سورة التّكوير : ﴿**فأين تذهبـون. إن هو إلا ذكـرٌ للعـالمين. لمن شـاء منكم أن يستقيم**﴾ .

بعد أن فَضَحَ الله تعالى المكذِّبين ، وبيَّن ما فيهم من المعايب ، وتطاولهم على شخص النبي ﷺ ، وادعـائهم أنه مـجنون!! ردّ الله تعـالى هذا الادعاء مرتين :

في بداية سـورة القلم : ﴿**مـا أنت بنعْـمَـة ربِّكَ بمجنون. وإنّ لك لأجـراً غـيـر ممنون. وإنّك لعلى خُلُقٍ عظيم**﴾ .

وفي آخــرها : ﴿**وإنْ يَكَادُ الذينَ كَـفَـروا لَيُـزْلِقُـونَكَ بِأَبْصارِهم لَمَّا سَـمِعُوا الذكرَ ويقُـولون إنَّه لَـمَـجْنُون. ومـا هو إلا ذكـرٌ للعالمين**﴾ .

ثم ألزمهم الله ـ عز وجل ـ في سورة التكوير بقـوله : ﴿**إنَّه لقولُ رسولٍ كريم. ذِي قُوَّةٍ عند ذي العــرش مكينٍ. مطاعٍ ثَمَّ أمينٍ. ومـا صَاحبُكم بمجنون**﴾ .

«وسورة التكوير مقصودها : التهديد الشديد بيـوم الوعـيـد ، الذي هو مـحط الرحـال ؛ لكونه أعظم مـقـام لظهـور الجـلال ، لمن كـذب بأن هذا القرآن تذكرة لمن ذكره في صحف مكرمة ، بأيدي سـفرة ، والدلالة على حقـيـقـة كونه كـذلك بأن السـفـيـر به أمين في الملأ الأعلى ، مكين المكانة فيـما هنالك ، والموصل له إلينا منزَّه عن التهـمـة بريءٌ من النقص لما يعلمـونه من حـاله قـبل النبوة ، وما كانوا يشـهدون له به من الكمال في صحبته لهم المتطاولة التي نبَّهَهم بالتعليق بها على ما لا يشكون فيه من أمره ، ولم يأتهم بعدها إلا بما هو شـرف له ، وتذكير بما في أنفسهم وفي الآفـاق من الآيات ، وذلك كـاف لهم في الحكم بأنه صدق ، والعلم واليقين بأنه حقٌّ»[1] .

ومن أجل إظهـار قوة سند القرآن وجلالته ، فقد :

(١) «نظم الدرر» ، للبقاعي ـ رحمه الله ـ .

١) صوَّرَ الله - تعالى - يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور الهائلة من عالم الملك والملكوت حتى كأنه رأي العين ؛ فقد ذكر الله تعالى اثنى عشر شيئاً ، فقال : ﴿**إذا الشَّمسُ كُوِّرتْ. وإذا النجومُ انْكَدَرتْ. وإذا الجبالُ سُيِّرَتْ. وإذا العِشَارُ عُطِّلَتْ. وإذا الوحوشُ حُشِرَتْ. وإذا البحَارُ سُجِّرَتْ. وإذا النفوسُ زُوِّجَتْ. وإذا المَوْءُودَةُ سُئِلتْ. بأيِّ ذنبٍ قُتِلَتْ. وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ. وإذا السماءُ كُشِطَتْ. وإذا الجحيمُ سُعِّرَتْ. وإذا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ**﴾.

وقال : إذا وقعت هذه الأشياء ؛ فهنالك : ﴿**عَلِمَتْ نَفسٌ ما أَحْضَرَتْ**﴾ .

من أجل ذلك قال رسول الله ﷺ :

«من سَرَّهُ أن ينظر إلى يوم القيامة ؛ كأنه رأيُ عَيْنٍ ؛ فليقرأ : ﴿**إذا الشمس كُوِّرتْ**﴾ ، ﴿**إذا السماءُ انْفَطَرَتْ**﴾ ﴿**وإذا السماء انْشَقَّتْ**﴾»[1] .

٢) ثم أقسم - الله تعالى - بالنجوم في حال خُنُوسها ؛ أي : في حال تأخرها ، وجريانها ، وفي حال كنوسها ؛ أي : في استتارها بالنهار .

وأقسم بالليل إذا عَسْعَس ؛ أي : أدبر ، وقيل : أقبل ، وكلاهما على وجه الاشتراك صحيح .

وأقسم بالصبح إذا تنفس ؛ أي : بدت علائمه ؛ فقال تعالى : ﴿**فلا أُقْسِمُ بالخُنَّسِ. الجَوَارِي الكُنَّسِ. واللَّيْلِ إذا عَسْعَسَ. والصبْحِ إذا تَنَفَّسَ**﴾ .

فأشار إلى عيوب تلحق هذه الأشياء التي ذكرها ، والقرآن منزه عن كل شائبة نقص ؛ لأنه كلام الملك الأعلى :

﴿**إنَّهُ لَقولُ رسولٍ كريمٍ**﴾

أجمع أهل التفسير على أن المراد بـ(**القول**) : هو القرآن ، وأما المراد بـ(**الرسول الكريم**) : جبريل عليه السلام ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿**ذي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العرش مكينٍ. مُطاعٍ ثَمَّ أمينٍ. وما صاحِبُكم بِمَجنونٍ**﴾ .

فصاحبكم هنا هو : محمد ﷺ الذي صحبهم منذ ولادته .

٣) والكرم الذي وصف به الرسول الملكي يدل على اجتماع كمالات الشيء اللائقة به ، ومن كرمه أنه يعطي أفضل العطايا ، وهو المعرفة والهدايا والرشاد ، ﴿**ذِي قُوَّةٍ**﴾ على ضبط ما أرسل به نفسه ، وعلى المدافعة للغير عن أن يدخل فيه شيئاً من نقص ، وأكَّد الله تعالى القُوَّةَ بقوله : ﴿**عِنْدَ ذِي العَرْشِ**﴾ أي : الملك الأعلى ؛ فجبريل مقرب عند الله ، له منزلة رفيعة وخصيصة من الله ، اختصه بها ، ﴿**مَكِينٍ**﴾ وله مكانةٌ عند الله فوق منازل الملائكة كلهم ؛ وهو ﴿**مُطَاعٍ**﴾ في الملأ الأعلى ؛ ﴿**ثَمَّ أَمِينٍ**﴾ ؛ قال ابن كثير - رحمه الله - : وقوله تعالى : ﴿**أَمِينٍ**﴾ صفة لجبريل بالأمانة ، وهذا عظيمٌ جداً أن الرب عز وجل يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل ، كما زكّى عبده ورسوله البشريّ محمد ﷺ بقوله : ﴿**وما صَاحِبُكم بِمَجْنُونٍ**﴾ .

قال الشنقيطي ـ رحمه الله ـ : فقوله تعالى : ﴿**وما صاحِبُكم بِمَجنونٍ**﴾ بيانٌ لتتمّة السند

---

(١) «السلسلة الصحيحة» (رقم ١٠٨١) .

حيث قال : ﴿**ولقدْ رآهُ بالأُفقِ المبينِ. وما هو على الغَيْبِ بضَنِينٍ**﴾ ؛ فنفى عنه ﷺ التلقي بنفي آفة الجنون ؛ فهو في كمال العقل ، وقُوَّة الإدراك ، ومن قبل أثبت له كمال الخُلُق ﴿**وَإِنَّكَ لَعلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ حين رد ادعائهم في المرة الأولى ، وأثبت له اللقيا ؛ فلم يلتبس عليه جبريل بغيره ، وهي أعلى درجات السند ؛ فاجتمع له ﷺ الكمال الخلقي ـ بضم الخاء وفتحها ـ ؛ أي : الكمال حساً ومعنىً .

وقوله تعالى : ﴿**وما هو على الغَيْبِ بضَنِينٍ**﴾ .

قال السعدي ـ رحمه الله ـ ؛ أي : وما هو على ما أوحاه الله إليه بشحيح ، يكتم بعضه ، بل هو ﷺ أمين أهل السماء ، وأهل الأرض ، الذي بلّغ رسالات ربه ، البلاغ المبين ، فلم يشح بشيء منه عن غني ، ولا فقير ، ولا رئيس ، ولا مرؤوس ، ولا ذكر ، ولا أنثى ، ولا حضري ، ولا بدوي ؛ ولذلك بعثه الله في أمة أمية ، جاهلة جهلاء ، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربّانيين ، وأحباراً متفرسين ، إليهم الغاية في العلوم ، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والفهوم ، وهم الأساتذة ، وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم .

ولما ذكر الله – تعالى – جلالة كتابه وفضله ، بذكر الرسولين الكريمين اللذين وصل إلى الناس على أيديهما ، وأثنى الله عليهما بما أثنى ، دفع عنه كل آفة ، ونقص ، مما يقدح في صدقه ؛ فقال : ﴿**وما هو بقولِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ**﴾ .

ونظير هذا السند في تمجيد القرآن وإثبات إتيانه من الله قوله تعالى في سورة النجم : ﴿**ما ضَلَّ صاحِبُكم وما غَوَى. وما يَنْطِقُ عن الهَوَى. إنْ هو إلا وَحيٌ يُوحَى. عَلَّمه شديدُ القُوَى. ذُو مِرَّةٍ فاسْتَوَى. وهو بالأفقِ الأعلى**﴾ .

وبعد هذا البيان بهذه القوة ، وبعد أن ثبت لهم سند هذا القرآن ، ومصدره ، لزمهم الأخذ به ، وإلا : ﴿**فأَيْنَ تَذْهَبونَ**﴾ .

قال قتادة ـ فيما أخرجه ابن جرير بإسناد حسن ـ : «فأين تعدلون عن كتابي وطاعتي؟» .

وقال الزجّاج : «فأي طريق تسلكون أبْيَنُ من هذه الطريقة التي قد بينت لكم؟» .

وقال ابن عطية : «أين المذهب عن هذه الحقائق؟» .

وقال ابن كثير : «أي : فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن ، مع ظهوره ، ووضوحه ، وبيان كونه حقاً من عند الله عز وجل؟» .

وقال الشنقيطي : «فالقرآن بمثابة من يسد على المكذبين الطريق ، فليس لنزوله على رسول الله ﷺ شبهة ، ولا تهمة ، فليس للعاقل أن يحيد عنه ، وكل ذهاب إلى غيره ؛ فطريق مسدود وضلال وهلاك» .

﴿**إن هو إلا ذكْرٌ للعالمين. لمن شاء منكم أن يستَقيمَ. وما تَشَاءونَ إلا أن يشاءَ اللهُ رَبُّ العالمينَ**﴾ .

فالباب ما زال مفتوحاً ، والفرصة ما زالت متاحة ومهيأة ، ولله الحمد والمنة ، فما على العبد بعد الذكر إلا أن يستقيم على سبيل الحق ؛ فيتبعه .

من أعلام نبوّته ﷺ

● بقلم: الشيخ سليم بن عيد الهلالي

عن عمرو بن قيس السكوني قال :

خرجت مع أبي في الوفد إلى معاوية ، فسمعتُ رجلاً يحدِّث الناس يقول : «**إن من أشراط الساعة: أن ترفع الأشرار، وتوضع الأخيار، ويفتح القول، ويخزن العمل، ويقرأ بالقوم المُثَنَّاة، ليس فيهم أحدٌ ينكرها.**

قيل: وما المُثَنَّاة؟

قال: ما اسْتُكْتِبَ سوى كتاب الله عز وجل».

قال : فحدَّثتُ بهذا الحديث قوماً ، وفيهم إسماعيل بن عبيدالله ؛ فقال : أنا معك في ذلك المجلس ، تدري من الرجل؟ قلت : لا ، قال : عبدالله بن عمرو .

صحيح ـ أخرجه الحاكم (٤/٥٥٤ ـ ٥٥٥) ، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣/٥٩٣) ، وابن أبي شيبة في «المصنَّف» (١٥/١٦٥) ، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥١٩٩) ، وأبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» من طرق عنه .

قال **شيخنا الالباني** ـ رحمه الله ـ في «الحديث حجة بنفسه» (ص٨٠) : «وهو وإن كان موقوفاً ؛ فله حكم المرفوع ؛ لأنه من الأمور الغيْبية التي لا تقال بمجرد الرأي ، لا سيَّما وقد رفعه بعض الرواة» .

وقال في «الصحيحة» (٦/٧٧٤/ ٢٨٢١) : «وهو من حديث عبدالله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما ؛ يرويه عنه عمرو بن قيس الكندي ، رواه عنه جمع ، رفعه بعضهم ، وأوقفه بعضهم ، وهو في حكم المرفوع ؛ لأنه لا يقال بمجرد الرأي» .

غريب الحديث:

المثناة : الكتب المذهبية المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ، والقوانين الوضعية التي استبدل بها شرع الله .

قال **شيخنا** في «الصحيحة» (٦/٧٧٦) : «وأما ما جاء في «النهاية» عقب الحديث ، وفيه تفسير «المثناة» :

وقيل : إن المثناة هي أخبار بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام ، وضعوا كتاباً فيما بينهم على ما أرادوا من غير كتاب الله ؛ فهو «المثناة» ؛ فكأنَّ ابن عمرو كره الأخذ عن أهل الكتاب ، وقد كان عنده كتبٌ وقعت إليه يوم اليرموك منهم فقال هذا لمعرفته بما فيها» .

قلت : وهذا التفسير بعيد كل البعد عن ظاهر الحديث ، وأن «المثناة» من علامات اقتراب الساعة ؛ فلا علاقة لها بما فعله اليهود قبل بعثته ﷺ ، فلا جرم أن ابن الأثير أشار إلى تضعيف التفسير بتصديره إياه بصيغة «قيل» .

وأشدُّ منه ضعفاً ما ذكره عقبه : «قال الجوهري : «المثناة» هي التي تسمّى بالفارسية «دوبيتي» ، وهو الغناء» أ . هـ كلام شيخنا ـ رحمه الله ـ .

قال أبو أسامة الهلالي عفا الله عنه: ما استبعده شيخُنا رحمه الله صوابٌ إذا كان المراد ما يحدث قُبيل الساعة ، ولكن هذا لا يتنافى أن ذلك حدث في بني إسرائيل ؛ وأن ما يقع في هذه الأمة هو من باب اتباع سَنَنِهم .

عن ربيع بن عميلة قال : ثنا عبدالله ، ما سمعنا حديثاً أحسنَ منه إلا كتاب الله عز وجل ، ورواية عن النبي ﷺ ، قال : «إن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد ؛ فَقَسَت قلوبهم اخترعوا كتاباً من عند أنفسهم ، استهوته قلوبهم ، واستحْلَتْه ألسنتهم ، وكان الحق يحولُ بينهم وبين كثيرٍ من شهواتهم ، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون .

فقالوا[1] : اعرضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل ؛ فإن تابعوكم عليه ؛ فاتركوهم ، وإن خالفوكم . فاقتلوهم .

قال : لا بل ابعثوا إلى فلان ـ رجل من علمائهم ـ ؛ فإن تابعكم ؛ فلن يختلف عليكم بعده أحد ؛ فأرسلوا إليه ؛ فدعوه ؛ فأخذ ورقة فيها كتاب الله ، ثم أدخلها في قرن ، ثم علقها في عنقه ، ثم لَبِسَ عليها الثياب ، ثم أتاهم ؛ فعرضوا عليه الكتاب ؛

(١) في الأصل : فقال .

فقالوا : تؤمن بهذا؟ فأشار إلى صدره ـ يعني الكتاب الذي في القرن ـ فقال : آمنتُ بهذا ، ومالي لا أؤمنُ بهذا؟ فخلُّوا سبيله .

قال : وكان له أصحاب يغشونه فلما حضرته الوفاة أتَوْه ، فلما نزعوا ثيابه وجدوا القرن في جوفه الكتاب ، فقالوا : ألا ترون إلى قوله آمنتُ بهذا ، ومالي لا أؤمنُ بهذا ؛ فإنما عني بهذا هذا الكتاب الذي في القرن .

قال : فاختلفت بنو إسرائيل على بضع وسبعين فرقة ، خير مللهم أصحاب أبي القرن» .

قال عبدالله : وإن من بَقي منكم سيرى منكراً ، وبحسب امرىءٍ يرى منكم منكراً لا يستطيعُ أن يغيِّره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره .

صحيح ـ أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦/٩٥-٩٦/٧٥٨٩) من طريق أبي سعيد بن الأعرابي[1] ثنا سعدان بن نصر ثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة عنه به .

قال شيخنا في «الصحيحة» (٦/٤٣٦/ ٢٦٩٤) : «وهذا إسنادٌ صحيح رجاله كلهم ثقات . . . ، ولكن عندي وقفةٌ في رفعه ؛ لأنه ليس صريحاً فيه ، ولكنه على كل حال في حكم المرفوع ، والله أعلم» أ . هـ .

قلت : فقد اكْتَتَبَتْ بنو إسرائيل كتاباً سوى كتاب الله ؛ فضلوا بسببه وتفرقوا ، وهذه الأمة تتبع سننهم في التفرق وأسبابه ، والله أعلم .

❖ بصيرة:

قال شيخنا رحمه الله في «الصحيحة» (٦/٧٧٥-٧٧٦) : «فائدة : هذا الحديث من أعلام نبوته ﷺ ، فقد تحقق كل ما فيه من الأنباء ، وبخاصة ما يتعلق بـ «المثناة» ، وهي كل ما كُتِبَ سوى كتاب الله ، كما فسره الراوي ، وما يتعلق به من الأحاديث النبوية ، والآثار السلفية ، فكأن المقصود بـ «المثناة» الكتب المذهبية المفروضة على المقلِّدين التي صرفتهم مع تطاول الزمن عن كتاب الله ؛ وسنة رسوله ﷺ كما هو مشاهدٌ اليوم مع الأسف من جماهير المُتَمَذهبين ، وفيهم كثير من الدكاترة والمتخرجين من كليات الشريعة ، فإنهم

(١) وقال شيخنا في «الصحيحة» (٦/٤٣٧) : «وأبو سعيد بن الأعرابي حافظ ثقة مشهور ، ترجمه الحافظ في «التذكرة» ، وله مصنفات منها : «المعجم» ، منه نسخة خطية في المكتبة الظاهرية ، ولعل هذا الحديث فيه ؛ فليراجع ؛ فإنه الآن بعيد عن متناول يدي» .

قلت : راجعت «المعجم» لابن الأعرابي المخطوط «نسخة الظاهرية» ، والمطبوع : الكاملة والناقصة ، فلم أجد الحديث .

جميعاً يتدينون بالتمذهب ، ويوجبونه على الناس حتى العلماء منهم ، فهذا كبيرهم أبو الحسن الكرخي الحنفي يقول كلمته المشهورة : «كل آية تخالفُ ما عليه أصحابنا ؛ فهي مؤولة أو منسوخة ، وكل حديث كذلك ؛ فهو مؤول أو منسوخ» فقد جعلوا المذهب أصلاً ، والقرآن تبعاً ، فلذلك هو «المثناة» دون ما شك أو ريب» .

قلت : نعم لقد قرأ «المثناة» بين المقلدين ، وليس فيهم من يغيِّر منها حرفاً ، وكأنها تنزيلٌ من حكيم حميد ، كيف؟! ، وقد فرقوا الدين ، وصيروا أهله شيعاً ، كل فرقة تنصر متبوعها ، وتدعو إليه ، وتذم من خالفها ، ولا يرون العمل بقولهم ، حتى كأنهم ملة أخرى سواهم ، ويدأبون ويكدون في الرد عليهم ، وتأويل كلامهم ؛ ليوافق معتقدهم ومذهبهم حتى بلغ التعصب بأحدهم ـ وهو أستاذ جامعيّ في جامعة إسلامية ـ أن قال : «لقد حنّفت كتاب «زاد المعاد» ؛ أي : ألبسته حلة المذهب الحنفي ؛ فلو رآه ابن القيم ؛ لأصبح حنفياً» .

ويقولون كتبنا وكتبهم ، ومذهبنا ومذهبهم ، وأئمتنا وأئمتهم ، واتخذوا هذا القرآن مهجوراً لا يقرأ إلا على الأموات أو المراسم والمواسم ، وأصبحت سنة رسول الله ﷺ نسياً منسياً ، وإن وجدت ؛ فهي للتبرك فقط ، وكأن قوله تعالى : ﴿**فتقطّعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون**﴾ [المؤمنون : ٥٣] تتحقق فيهم ، والزبر هي الكتب ؛ أي : كل فرقة صنفوا كتباً ؛ أخذوا بها ، وعملوا بها ، ودعوا إليها ، دون كتب الآخرين ؛ كما هو الواقع سواء[١] .

ولم يقف واقع الناس عند هذا الحد ، بل اكتتبت الكتب الحزبية ، ولفقت القوانين الوضعية من شرائع شتَّى وأهواء كثيرة ؛ كالقانون البريطاني ، والقانون الأمريكي ، والقانون الفرنسي ، والتي شَقِيَت بها البشرية ، وجعلت دستوراً للحكم بين العالمين ، وللرد عليها عند تخاصم المتنازعين ، وأسست لها جامعات تُدرسها ، ومعاهد تشرحها ، ومحاكم مهيأة يساق الناس إليها أسراب إثر أسراب ، ويحكم بينهم بغير السنة والكتاب ؛ فإلى الله المرجع والمآب[٢] .

(١) لبيان أباطيل المقلدين المتعصبين انظر ـ لزاماً ـ : «هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين من المذاهب الأربعة؟ لمحمد بن سلطان المعصومي ، بتحقيقي ، وكتابي «التعظيم والمنة في الانتصار للسنة» .

(٢) لبيان فساد هذا القانون اللعين الذي شقيت به البشرية في هذا الحين انظر ـ غير مأمور ـ : «تحذير أهل الإيمان عن الحكم بغير ما أنزل الرحمن» للإسعردي ؛ بتحقيقي .

الحكم بما أنزل الله فرض عين على كل مسلم

● بقلم: فضيلة الشيخ سعد الحصين

أكثر الحركات والأحزاب الموصوفة بـ«الإسلامية» في هذا الجيل اتخذت كلمة «**الحكم بما أنزل الله**»... شعاراً لها، ونِعْمَ الشِّعارُ القوليُّ إذا وافقه العمل؛ فهو - بعمومه - أصل أصول الدّين، والغاية التي خلق الله لها الثقلين، وأعظمه: الاعتقاد بوحدانية الله في استحقاق العبادة وِفْق وحي الله تعالى إلى رسله في الكتاب والسّنّة.

قال الله تعالى على لسان يعقوب - عليه الصلاة والسلام -: ﴿**إن الحكم إلا لله عليه توكّلتُ وعليه فليتوكّل المتوكّلون**﴾، وقال الله تعالى على لسان يوسف عليه الصّلاة والسّلام: ﴿**إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون**﴾، وقال تعالى لخاتم أنبيائه ﷺ: ﴿**فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتّبع أهواءهم**﴾. قال ابن كثير في «تفسيره» (٢/٧٥): «أي: فاحكم يا محمد بين الناس عربهم وعجمهم، أمّيّهم وكتابيّهم، بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم... ﴿**ولا تتّبع أهواءهم**﴾؛ أي: آراءهم التي اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله».

ولكن الحركيّين والحزبيّين باتباعهم رأيهم وفكرهم الموصوف بالإسلامي ضيّقوا المعنى الواسع الشامل للحكم بما أنزل الله؛ فقصروه على فقه المعاملات، وخصّوا به الحكّام، تبعاً لفكر الأستاذ سيّد قطب - رحمه الله - الذي ظنّ أنّ «أخصّ خصائص الألوهيّة هي: الرّبوبية، والقوامة، والسّلطان، والحاكميّة» «في ظلال القرآن» (٤/١٨٥٢).

وقد أُتي المفكّر والمقلّد من قِبَل جهلهم بالمعنى اللغوي والشرعي للكلمة الطيّبة : «لا إله إلا الله» ، وبالتّـالي : خلطهم بين معنى الألوهيّة ومعنى الربوبيّة في الاعتقاد والعمل ـ تجاوز الله عنّا وعنهم ـ .

وكما خرجوا عن منهاج الحكم بما أنزل الله في أمر التّوحيد ؛ خرجوا عن منهاجه في أمر الشرك ؛ فوسّعوه ـ تبعاً لسيّد رحمه الله ـ ليشمل أموراً ليست من الشرك في شيء : السّياسة ، والتقاليد ، والعادات ، والأزياء التي ظنّ سيّد ـ رحمه الله ـ أنّ اتّباع البشر فيها : «مزاولة للشّرك في أخصّ حقيقته ، ومخالفة لشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله في أخصّ حقيقتها . . . ولو توجّه العبد إلى الله في ألوهيته وحده ، ودان لشرع الله في الوضوء والصّلاة ، والصّوم ، وسائر الشعائر» ، (التفصيل (٤/٢١١٤) «في ظلال القرآن») ، وكعادة البدَع أَنْسَى «التّوحيدُ والشِّركُ الحديثُ» أكثَرَ شبابِ الأمة التّوحيدَ الذي جاء به كلُّ رسل الله : إفراد الله بالعبادة ، والشّركَ الذي نهى عنه كلّ رسل الله : تعظيم المقامات ، والمزارات ، والأنصاب التي تتخذ مساجد قديماً وحديثاً .

والحقّ الذي هدى إليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ : أنّ الحكم بما أنزل الله شاملٌ لكلّ ما أوحى الله إلى عبده ورسوله؛ ليبيّنه للنّاس، وليحكم به بينهم أولاً ـ وقبل كلّ شيء ـ في الاعتقاد، ثم في العبادات، ثم في المعاملات، لا العكس كما وَهِمَ منتجوا الفكر «الإسلامي» ومستهلكوه.

والحقّ الذي هدى إليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ : أنّ الحكم بما أنزل الله شاملٌ لكلّ ما أوحى الله إلى عبده ورسوله؛ ليبيّنه للنّاس، وليحكم به بينهم أولاً ـ وقبل كلّ شيء ـ في الاعتقاد، ثم في العبادات، ثم في المعاملات، لا العكس كما وَهِمَ منتجوا الفكر «الإسلامي» ومستهلكوه.

وسنة رسوله ﷺ : أنّ الحكم بما أنزل الله فريضة عين على كلّ مسلم حاكماً كان أو محكوماً ، «وكلّكم راع ومسؤولٌ عن رعيته» ؛ كلٌّ بحسبه من المسؤوليّة الشرعيّة .

والحقّ الذي هدى إليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم: أنّ الحكم بما أنزل الله شاملٌ لكلّ ما أوحى الله إلى عبده ورسوله؛ ليبيّنه للنّاس، وليحكم به

بينهم أولاً - وقبل كلّ شيء - في الاعتقاد، ثم في العبادات، ثم في المعاملات، لا العكس كما وَهِمَ منتجوا الفكر «الإسلامي» ومستهلكوه .

والحقّ الذي هدى إليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم : أن أوامر الله تعالى تتفاوت بين فرض العين وفرض الكفاية والنافلة ، وأن نواهيه تعالى تتفاوت بين الكبيرة الموبقة (وأعظمها الشّرك بالله في عبادته باتخاذ قبور الأنبياء والصّالحين مساجد يدعون فيها مع الله تقرّباً إليه واستشفاعاً بهم إليه ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً) وبين الصّغيرة من اللّمم ، **وأن من الحكم بغير ما أنزل الله المساواة بين الفرض والنّافلة في الأمر، وبين الكبيرة والصّغيرة في النّهي** ، بل إن من الحكم بغير ما أنزل الله تفريق الأمة في الدّين أحزاباً وجماعات على مناهج في الدّين أو الدّعوة تخالف منهاج النّبوّة الذي شرعه الله لجميع رسله ولجميع من أرسلهم إليهم[1] ، وهو ما يقع فيه الحركيّون والحزبيّون ، هدانا الله وإياهم لأقرب من هذا رشداً ، وصلّى الله وسلم على عبد الله ورسوله ، ومن اتّبع سنّته .

عوائق في طريق العلم

إن طريق العلم محفوف بالعوائق، من مقت يحيق، ووقت يضيق، وإن الأقدار قد وضعت في طريقكم إلى العلم عائقاً جديداً هو شر العوائق وأضرها.. هو هؤلاء الدعاة الغاشون، والسماسرة المضلون، يدعونكم إلى السياسة؛ ليصدوكم عن العلم، وإلى الحزبية؛ ليفرقوكم من الجماعة، وإلى الوطنية؛ ليشغلوكم باسمها عن حقيقتها، ويلهوكم بلفظها عن تحصيل أقوى وسائلها، وهو العلم، إنهم يملؤونكم بالخيالات صغاراً؛ لتفرغوا من الحقائق كباراً؛ وإنه لنوع من التسميم المرجأ لا يشعر به المصاب إلا بعد فوات الوقت.

[محمد البشير الإبراهيمي في «عيون البصائر» (ص٣٥١)] .

(١) قال الله تعالى : ﴿إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ .

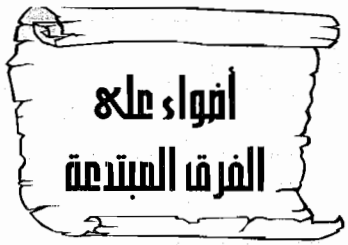

منهج شيخ الإسلام في كشف بدعة الخوارج

● بقلم: الشيخ فتحي عبد الله سلطان

لقد نبتت في بلاد المسلمين نابتة سوء ترجع بأصولها إلى بدعة الخوارج ؛ فوجب تحذير المسلمين من ذلك ؛ وحتى يتمكن المبصر ـ لحقائق الأشياء ـ التمييز عند الحكم على الأفعال بين الخطأ المغفور لصاحبه والذي هو من قبيل الاجتهاد السائغ ، وبين الأخطاء المغلظة والتي ترجع بأصولها إلى أهل البدع والأهواء ؛ خاصة فيما يتعلق ببدعة تكفير المسلمين ، واستحلال دمائهم وأموالهم وديارهم .

وهذا التمييز ـ وحتى يتحقق هدفه ـ لا بد أن يؤسس ويؤصَّل على فهم علميّ سلفي للكتاب والسنة وتطبيقاتهما في الواقع أولاً .

وعلى دراية ببدعة الخوارج وأصولها ونشأتها ثانياً ، ولا سبيل لتحقيق الأمرين اللازمين لرؤية صحيحة في هذا الميدان ، إلا بالنظر في الموروث العلمي لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ؛ لا سيما وأن الدواعي لمثل هذا الطرح مقصوده الوقوف على السمات الخاصة بالخوارج في كل عصر ؛ ولشيخ الإسلام السبق في هذا الميدان .

وقبل الشروع بالمقصود لا بد من التذكير بأمورٍ هامة نبّه عليها شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ :

الأول : الخوارج أول ما خرجوا زمن أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ ، وكان لهم من الصلاة ، والصيام ، والقراءة ، والعبادة ، والزهد ، ما لم يكن لعموم الصحابة ؛ لكن كانوا خارجين عن سنة رسول الله ﷺ ، وعن جماعة المسلمين ، وقتلوا من المسلمين رجلاً اسمه عبدالله بن خباب ، وأغاروا على دواب المسلمين .

وهذه البدعة هي أول البدع ظهوراً في الاسلام ، وأظهرها ذمّاً في السنة والآثار ؛ فإنّ

أولهم قال للنبي ﷺ في وجهه : اعدل يا محمد ؛ فإنك لم تعدل ، وأمر النبي ﷺ بقتلهم وقتالهم ، وقاتلهم أصحاب النبي ﷺ مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

والأحاديث عن النبي ﷺ مستفيضة[1] بوصفهم وذمهم والأمر بقتالهم ، قال أحمد ابن حنبل ـ رحمه الله ـ : صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه ، قال النبي ﷺ : **«يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الاسلام؛ كما يمرق السهم من الرمية، أينما لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة»** .

الثاني : لا يزال يخرجون إلى زمن الدجال :

أحاديث الخوارج رويت من عدة أوجه ؛ ففي حديث أبي برزة عند النسائي : **«يخرج في آخر الزمان قوم كأن هذا منهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام؛ كما يمرق السهم من الرمية، سيماهم التحليق، لا يزال يخرجون حتى يخرج آخرهم مع الدجال. فإذا لقيتموهم فاقتلوهم. هم شر الخلق والخليقة»** .

قال **شيخ الاسلام** في «المجموع» (٤٩٦/٢٨) : «فإنه قد أخبر في غير هذا الحديث أنهم لا يزالون يخرجون إلى زمن الدجال . وقد اتفق المسلمون على أن الخوارج ليسوا مختصين بذلك العسكر» .

الثالث : أدخل العلماء في نصوص الخوارج كل من كان في معناهم من أهل الأهواء والبدع ، وإن كان الخروج عن الدين والإسلام أنواعاً مختلفة[2] .

الأمر الرابع : إن الشريعة ذمتهم وأمرت بقتالهم مع ما عندهم من حسنات وعبادات :

قال **شيخ الاسلام** (٤٧٣/١١) : «فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم وما هم عليه من العبادة والزهادة أمر النبي ﷺ بقتلهم ، وقتلهم علي بن أبي طالب ومن معه من أصحاب النبي ﷺ ؛ وذلك لخروجهم عن سنة النبي وشريعته . .» أ . هـ .

والملاحظ : أن الخوارج يتدرجون في

(١) ذكر البخاري أحاديث الخوارج في (كتاب المناقب ، باب علامات النبوة) ، وخصص مسلم ثلاثة أبواب من كتاب الزكاة لأحاديث الخوارج .

(٢) انظر «المجموع» (٤٧٦/٢٨ ، ٤٩٩) .

بدعتهم ؛ حتى يتمكنوا من فرضها على الواقع : يبادرون أولاً بمقدمات البدعة ثم بتنظيرها والاستدلال عليها ، ثم إيجاد مبررات الشروع بالبدعة ودواعي تنفيذ الفكرة ، ثم فرض البدعة على الواقع بالسيف ، وفي كلام شيخ الاسلام ـ رحمه الله تعالى ـ كفاية للمطلوب ، فأحببنا الوقوف على المحاور الآتية :

المحور الأول: مقدمات بدعتهم:

سوء الفهم لمراد الله ورسوله ﷺ أصل بدعة الخوارج ، فهم لم يقصدوا مخالفة الكتاب ، ولكن فهموا منه ما لم يدل عليه ، يقول شيخ الإسلام في «المجموع» (١٣/٣٠ ـ ٣١) : «وكانت البدع الأولى مثل «بدعة الخوارج» **إنما هي من سوء فهمهم للقرآن، لم يقصدوا معارضته، لكن فهموا منه ما لم يدل عليه؛ فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب** ؛ إذا كان المؤمن هو البر التقي . قالوا : فمن لم يكن براً تقياً ؛ فهو كافر ، وهو مخلد في النار .

ثم قالوا : وعثمان وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين ؛ لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله ، **فكانت بدعتهم لها مقدمتان** :

(**الواحدة**) : أن من خالف القرآن بعمل أو برأي أخطأ فيه ؛ فهو كافر .

(**والثانية**) : أن عثمان وعلياً ومن والاهما كانوا كذلك .

ولهذا يجب الاحتراز من تكفير المسلمين بالذنوب والخطايا ؛ فإنه أول بدعة ظهرت في الإسلام ، فكفر أهلها المسلمين ، واستحلوا دماءهم وأموالهم ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أحاديث صحيحة في ذمهم والأمر بقتالهم» أ . هـ .

المحور الثاني: أصل بدعتهم:

أدخل شيخ الاسلام ـ رحمه الله ـ بدعة الخوارج ضمن **البدع المغلظة الكبار** ؛ كبدعة الرافضة ونحوهم ، عند الكلام على أصل هذه البدع ، وبيان وجه التفاوت بينها ، فقال ـ رحمه الله ـ في «المجموع» (٢٨/٤٩٧) :

«فهؤلاء أصل ضلالهم : اعتقادهم في أئمة الهدى وجماعة المسلمين أنهم خارجون عن العدل ، وأنهم ضالون ، وهذا مأخذ الخارجين عن السنة من الرافضة ونحوهم . ثم يعدون ما يرون أنه ظلم عندهم كفراً . ثم يرتبون على الكفر أحكاماً ابتدعوها .

فهذه **ثلاث مقامات** للمارقين من الحرورية والرافضة ونحوهم . في كل مقام تركوا بعض أصول دين الإسلام ، حتى مرقوا منه كما مرق السهم من الرمية» .

ونظر شيخ الاسلام ـ رحمه الله ـ إلى أصل بدعة الخوارج وخاصيتها من وجهين :

الأول : على اعتبار أنها مخالفة للسنة .

الوجه الثاني: ما يترتب على هذه المخالفة من لوازم باطلة يلزمون الناس بها، فقال ـ رحمه الله ـ في «المجموع» (١٩/٧٢ ـ ٧٣):

«ولهم [أي: الخوارج] خاصتان مشهورتان فارقوا بهما جماعة المسلمين وأئمتهم:

أحدهما: خروجهم عن السنة، وجعلهم ما ليس بسيئة سيئة، أو ما ليس بحسنة حسنة، وهذا هو الذي أظهروه في وجه النبي ﷺ؛ حيث قال له ذو الخويصرة التميمي: اعدل؛ فإنك لم تعدل، حتى قال له النبي ﷺ: «**ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أعدل**»...

الفرق الثاني في الخوارج وأهل البدع: أنهم يكفرون بالذنوب والسيئات، ويترتب على تكفيرهم بالذنوب استحلال دماء المسلمين وأموالهم، وأن دار الإسلام دار حرب، ودارهم هي دار الإيمان».

ثم بيَّن ـ رحمه الله ـ ما يتولد من هذين الأصلين الخبيثين، فقال: «فينبغي للمسلم أن يحذر من هذين الأصلين الخبيثين، وما يتولد عنهما من بغض المسلمين وذمهم ولعنهم واستحلال دمائهم وأموالهم.

وهذان الأصلان هما خلاف السنة والجماعة، فمن خالف السنة فيما أتت به أو شرعته؛ فهو مبتدع خارج عن السنة، ومن كفّر المسلمين بما رآه ذنباً، سواء كان ديناً أو لم يكن ديناً، وعاملهم معاملة الكفار؛ فهو مفارق للجماعة، وعامة البدع والأهواء إنما تنشأ من هذين الأصلين» أ. هـ.

المحور الثالث: مصدر التلقي عند الخوارج وطريقتهم في الاستدلال:

يعتمد الخوارج في تقرير أصولهم على ظواهر النصوص القرآنية، ويردون من السنة ما خالف ـ بزعمهم ـ ظاهر القرآن، بل يعدلون عن السنة المتواترة إذا كانت تخالف هذا الظاهر، يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ في «المجموع» (٣/٣٥٥):

«وإذا عرف أصل البدع، فأصل قول الخوارج أنهم يكفرون بالذنب، ويعتقدون ذنباً ما ليس بذنب، **ويرون اتباع الكتاب دون السنة التي تخالف ظاهر الكتاب. وإن كانت متواترة. ويكفرون من خالفهم**، ويستحلون منه لارتداده عندهم ما لا يستحلونه من الكافر الأصلي، كما قال النبي ﷺ فيهم: «**يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان**»، ولهذا كفروا عثمان وعلياً وشيعتهما؛ وكفروا أهل صفين ـ الطائفتين ـ في نحو ذلك من المقالات الخبيثة». أ. هـ.

فالخوارج وقعوا في أمرين خطيرين:

الأول: تركهم واجب اتباع السنة، ولا يرون اتباع الرسول ﷺ واجباً:

قال شيخ الإسلام في «المجموع»

(١٠٤/٢٠) : «وأهل البدع ذنوبهم ترك ما أمروا به من اتباع السنة وجماعة المؤمنين ، فإن الخوارج أصل بدعتهم أنهم لا يرون طاعة الرسول واتباعه فيما خالف ظاهر القرآن عندهم ، وهذا ترك واجب» .

وقال ـ رحمه الله ـ في «المجموع» (٧٣/١٩) : «والخوارج جوزوا على الرسول نفسه أن يجور ويضل في سنته ، ولم يوجبوا طاعته ومتابعته ، وإنما صدقوه فيما بلغه من القرآن دون ما شرعه من السنة التي تخالف ـ بزعمهم ـ ظاهر القرآن» .

الأمر الثاني : تفسير القرآن بفهمهم وآرائهم :

لم يقف الأمر عند اتباع القرآن دون اتباع السنّة فحسب ، بل تعداه إلى تفسير القرآن بفهمهم وآرائهم وأهوائهم ، لا سيما نصوص الوعيد ؛ حيث غلطوا في فهمها . . ، يقول شيخ الإسلام في «المجموع» (٤٨٣/٢٨) ـ عند الكلام على الفرق بين بدعة الخوارج وبدعة الرافضة والتفاوت بينهما ـ : «وأيضاً فالخوارج كانوا يتبعون القرآن بمقتضى فهمهم ، وهؤلاء إنما يتبعون الإمام المعصوم عندهم الذي لا وجود له ؛ فمستند الخوارج خير من مستندهم»[1] .

وقال أيضاً في «المجموع» (٤٩١/٢٨) : «وأيضاً فإن الخوارج كانوا ينتحلون اتباع القرآن بآرائهم ، ويدعون اتباع السنن التي يزعمون أنها تخالف القرآن ، والرافضة تنتحل اتباع أهل البيت ، وتزعم أن فيهم المعصوم الذي لا يخفى عليه شيء من العلم ، ولا يخطئ ؛ لا عمداً ، ولا سهواً ، ولا رشداً» .

والمتتبع لكلام شيخ الإسلام في تحليله لبدعة الخوارج يلحظ : أن الخوارج لم يكن عندهم كتب مصنفة في أصول بدعتهم وتفريعاتها ؛ بل تبقى فكرتهم قائمة في عقولهم ، ينظِّرونها ، ويؤصِّلونها على أساس بدعي حركي فكري مما يخدم بدعتهم في تكفير المسلمين وإلزامهم بهذا اللازم الفاسد ؛ **ولهذا يصعب تمييزهم في بداية ظهورهم حتى تكون لهم الأرضية التي ينطلقون منها لتحقيق بدعتهم** ، بخلاف سائر الفرق الأخرى التي لها كتب مصنفة في تقرير اعتقادها ، ومن ثمَّ يتمكن أهل الاتباع من تمييزهم والتعريف بهم وببدعتهم .

يقول شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ في «المجموع» (٤٨/١٣ ـ ٤٩) :

«و(الخوارج) لا يتمسكون من السنة إلا بما فسر مجملها دون ما خالف ظاهر القرآن عندهم ، فلا يرجمون الزاني ، ولا يرون للسرقة نصاباً ، وحينئذ فقد يقولون : ليس في القرآن

(١) مع أن شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أدخل البدعتين في البدع المغلظة الكبار .

قتل المرتد ، فقد يكون المرتد عندهم نوعين .

و(أقوال الخوارج) إنما عرفناها من نقل الناس عنهم لم نقف لهم على كتاب مصنف، كما وقفنا على كتب المعتزلة والرافضة، والزيدية، والكرامية، والأشعرية، والساليّة، وأهل المذاهب الأربعة، والظاهرية، ومذاهب أهل الحديث، والفلاسفة، والصوفية، ونحو هؤلاء».

المحور الرابع: منشأ الغلط عند الخوارج (مسوّغات بدعتهم):

عالج شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ عوامل نشوء بدعة الخوارج ، وبيان المداخل التي يدخل الشيطان منها ؛ لتزيين البدعة لهم ، وتحسينها ، بل وتسويغ القول بها ؛ حتى تكون مقبولةً يدافعون عنها بالجماعة والإمام والسيف .

ويمكن الإشارة إلى الأسباب التي رصدها شيخ الإسلام ، والتي هي منشأ الغلط عندهم ، وهي ـ في الوقت نفسه ـ مسوّغات إمضاء بدعتهم إلى الناس :

١- الورع الفاسد (الناقص) الناتج عن قلة علم:

يتورّع كثير من الناس عن أمور معينة ، وبالمقابل يتركون أموراً واجبة عليهم ، ومنهم من يفعل أموراً مشتبهة فاسدة هي من جنس الظنون الكاذبة ، ويعدون ذلك من قبيل الورع بسبب نقص علمهم وفقههم ، حتى يجعلون ذلك طريقةً متبوعةً يضاهون الشريعة فيها .

ولما تورع الخوارج تورعاً فاسداً من جهة تعظيم أمر الظلم والمعاصي ، وأن الله ـ تعالى ـ صادق ليس بكاذب بما أخبر بأحكام الوعيد ، وتركوا بالمقابل واجب الطاعة للرسول ﷺ وتحكيم سنته في مسائل الأسماء والأحكام ، ووجوب بذل الرحمة لأهل الإيمان ؛ وقعوا في بدعتهم المغلظة ، التي كانت سبباً في تنصيص النبي ﷺ على ذمهم والأمر بقتالهم . . .

وفي هذا المدخل الخطير ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في «المجموع» (٢٠/١٤٠) : «وهذا الورع قد وقع صاحبه في البدع الكبار ؛ **فإن ورع الخوارج والروافض والمعتزلة ونحوهم من هذا الجنس** ، تورعوا عن الظلم وعن ما اعتقدوه ظلماً من مخالطة الظلمة في زعمهم ، حتى تركوا الواجبات الكبار ، من الجمعة والجماعة ؛ والحج والجهاد ؛ ونصيحة المسلمين والرحمة لهم ، وأهل هذا الورع مما أنكر عليهم الأئمة ؛ كالأئمة الأربعة ، وصار حالهم يذكر في اعتقاد أهل السنة والجماعة» .

ثم بيَّن رحمه الله أن هذا الورع الفاسد لا يصح إلا بعلم كثير ، وفقه متين ، وحلم رزين ؛

فقال في «المجموع» (٢٠/١٤١ ـ ١٤٢) :

«ولهذا يحتاج المتورع إلى علم كثير بالكتاب والسنة ، والفقه في الدين ، وإلا فقد يفسد تورعه الفاسد أكثر مما يصلحه ؛ كما فعله الكفار وأهل البدع من الخوارج والروافض وغيرهم» .

والورع المشروع ـ الذي غلط فيه الخوارج وانحرفوا عنه ـ لا بد أن يكون في فعل الواجبات وترك المحرمات **أولاً** ، ولا بد أن يكون صاحبه موافقاً للسنة **ثانياً** ، وأن يكون في دائرة الخوف والرجاء **ثالثاً** ، يقول شيخ الإسلام في «المجموع» (٢٠/١١٠ ـ ١١١) :

«مثال ذلك : أن الوعيدية من الخوارج وغيرهم فيما يعظمونه من أمر المعاصي والنهي عنها ، واتباع القرآن وتعظيمه أحسنوا ، لكن إنما أُتوا من جهة عدم اتباعهم للسنة ، وإيمانهم بما دلت عليه من الرحمة للمؤمن وإن كان ذا كبيرة» .

٢- التلازم بين الخطأ والإثم:

من المعلوم أن الكلام في حكم الفاسق الملي هو أول اختلاف حدث في الملة ؛ فقالت الخوارج : إنه كافر ، وقالوا بـ «إنفاذ الوعيد» ومعناه عندهم : أن فساق الملة مخلدون في النار ، لا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها ذلك ؛ ليثبتوا أن الرب صادق لا يكذب ؛ إذا كان عندهم قد أخبر بالوعيد العام ، فمتى لم يقل بذلك لزم كذبه ، وغلطوا في فهم الوعيد ، وجعلوا الإثم وموجبات الوعيد لازمة للخطأ لا تنفك عنه بأي حال .

قال شيخ الإسلام في «المجموع» (٣٥/٦٩ ـ ٧٠) : «وأهل الضلال يجعلون **الخطأ والإثم متلازمين** : فتارة يغلون فيهم ؛ ويقولون : إنهم معصومون . وتارة يجفون عنهم ؛ ويقولون : إنهم باغون بالخطأ ، وأهل العلم والإيمان لا يعصمون ، ولا يؤثمون .

ومن هذا الباب تولد كثير من فرق أهل البدع والضلال . فطائفة سبت السلف ولعنتهم ؛ لاعتقادهم أنهم فعلوا ذنوباً ، وأن من فعلها يستحق اللعنة ؛ بل قد يفسقونهم ؛ أو يكفرونهم ، كما فعلت الخوارج الذين كفروا علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان ، ومن تولاهما ، ولعنوهم وسبوهم ، واستحلوا قتالهم . . .» أ . هـ .

٣- الغلط في فهم النصوص

ظهر هذا الغلط بوضوح في فهم نصوص الوعيد وما يتفرع عن ذلك من تكفير المسلمين ، وكذلك في فهم نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما يتفرع من مسائل الخروج على الأئمة وقتالهم .

يقول شيخ الإسلام في «درء تعارض العقل والنقل» (١/١٤١) : «والخوارج الذين تأولوا آيات من القرآن وكفّروا من خالفهم فيها ، أحسن حالاً من هؤلاء ، فإن أُولئك

[أي : الخوارج] علّقوا الكفر بالكتاب والسنة ؛ لكن غلطوا في فهم النصوص ، وهؤلاء [أي : الجهمية] علّقوا الكفر بكلام ما أنزل الله به من سلطان» .

٤- الغلط في الوسائل والمقاصد:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقصد شرعي له ضوابطه وحدوده ووسائله ، والخوارج - بسبب إعراضهم عن السنة - جعلوا المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، بل جهلوا وسائل الأمر والنهي وما يصلح لهما وما لا يصلح ؛ فكان خطؤهم في الوسيلة والمقصد :

يقول شيخ الإسلام في «المجموع» (١٢٨/٢٨) - عند الكلام على أغلاط الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - : «والفريق الثاني : من يريد أن يأمر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقاً ؛ من غير فقه وحلم وصبر ونظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح ، وما يقدر عليه وما لا يقدر . . . فيأتي بالأمر والنهي معتقداً أنه مطيع في ذلك لله ورسوله وهو معتد في حدوده ؛ كما انتصب كثير من أهل البدع والأهواء ؛ كالخوارج والمعتزلة والرافضة ، وغيرهم ممن غلط فيما آتاه من الأمر والنهي والجهاد على ذلك ، وكان فساده أعظم من صلاحه ؛ ولهذا أمر النبي ﷺ بالصبر على جور الأئمة ؛ ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة ، وقال : «**أدوا إليهم حقوقهم، وسلوا الله حقوقكم**» . وقد بسطنا القول في ذلك في غير هذا الموضع» . أ . هـ .

٥- الغلط في الدليل والمدلول:

اعتقد الخوارج رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن

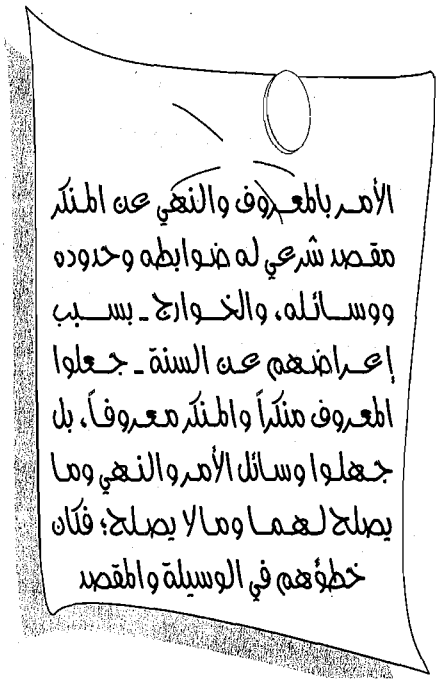

عليه ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا من أئمة المسلمين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم ، وسلكوا في سبيل ذلك طريقين :

إما بسلب ما دل عليه القرآن ، وإما بحمله على ما لم يدل عليه ؛ فكان خطؤهم في ما اعتقدوه من المعاني الباطلة ، وفي طريقة استدلالهم لتقرير تلك المعاني :

قال شيخ الاسلام ـ رحمه الله ـ في «المجموع» (٣٥٦/١٣) : «فالذين أخطأوا في الدليل والمدلول ـ مثل طوائف من أهل البدع ـ اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه الأمة الوسط الذي لا يجتمعون على ضلالة ، كسلف الأمة وأئمتها ، وعمدوا إلى القرآن ؛ فتأولوه على آرائهم :

تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها ، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه ، ومن هؤلاء فرق الخوارج ، والرافضة ، والجهمية ، والمعتزلة ، والقدرية ، والمرجئة ، وغيرهم» .

المحور الخامس: لوازم البدعة - مرحلة الشروع -:

لا ينحصر ضرر بدعة الخوارج في دائرة الاعتقاد النظري ؛ بل يتعدى إلى واقع عملي يعكس لوازم هذه البدعة وتطبيقاتها العملية على واقع الأمة ، ويمكن إجمال هذه اللوازم المتولدة عن بدعة الخوارج بما يلي :

الأول: الخروج على أئمة الهدى وجماعة المسلمين وولاة أمورهم بالسيف .

وهذا اللازم من أخطر ما يتولد من هذه البدعة الرديَّة ؛ مما يحصل بسببها فساد الدين والدنيا .

يقول شيخ الإسلام في «المجموع» (٣٥/١٣) : «وكلا الطائفتين [أي : الرافضة والخوارج] تطعن بل تكفر ولاة المسلمين ، وجمهور الخوارج يكفرون عثمان وعلياً ومن تولاهما ، والرافضة يلعنون أبا بكر وعمر وعثمان ومن تولاهما ، **ولكن الفساد الظاهر كان في الخوارج: من سفك الدماء، وأخذ الأموال، والخروج بالسيف، فلهذا جاءت الأحاديث الصحيحة بقتالهم** ، والأحاديث في ذمهم والأمر بقتالهم كثيرة جداً ، وهي متواترة عند أهل الحديث مثل أحاديث الرؤية ، وعذاب القبر وفتنته ، وأحاديث الشفاعة والحوض»[1] .

الثاني: بغض المسلمين وتكفيرهم وذمهم ولعنهم واستحلال دمائهم وأموالهم .

بعد أن ذكر شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ أصلين خطيرين للخوارج ؛ قال : «فينبغي للمسلم أن يحذر من هذين الأصلين الخبيثين ، وما يتولد عنهما من بغض المسلمين وذمهم ولعنهم واستحلال دمائهم وأموالهم . . .»[2] .

الثالث: جعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب، وسموا دارهم دار الهجرة:

وهذا حاصل تحصيل لبدعتهم ؛ حتى

(١) انظر «المجموع» (٤٩٧/٢٨) . (٢) «المجموع» (٧٤/١٩) .

يسوِّغوا استحلالهم لدماء المسلمين وأموالهم ، يقول شيخ الإسلام في «المجموع» (٧٣/١٩) : «الفرق الثاني في الخوارج وأهل البدع : أنهم يكفرون بالذنوب والسيئات ، ويترتب على تكفيرهم بالذنوب استحلال دماء المسلمين وأموالهم ، وأن دار الإسلام دار حرب ودارهم هي دار الإيمان . . .»[١] .

ويقول أيضاً في «المجموع» (٩٨/١٣) - عند كلامه في الفرق بين المعتزلة والخوارج - : «فهم يتحرَّوْن الصدق كالخوارج ، لا يختلقون الكذب كالرافضة ، ولا يرون أيضاً اتخاذ دار غير دار الإسلام كالخوارج . . .»[٢] .

فائدة:

بل ربما هاجر الخوارج إلى دار الكفار واستوطنوا فيها ؛ لعلتين :

الأولى : لأنهم لا يصبرون على جَوْر الحكام[٣] .

الثانية : لأنهم يستحلون بلاد الإسلام أكثر من استحلالهم بلاد الكفار .

يقول شيخ الإسلام في «المجموع» (٣٥٥/٣) : «ويكفرون من خالفهم ، ويستحلون منه لارتداده عندهم ما لا يستحلونه من الكافر الأصلي ، كما قال النبي ﷺ فيهم : «يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان» . . .» .

اللازم الرابع : يكفرون المخالف لهم ، ويلزمون الناس ببدعتهم :

وهذا قدر مشترك في كل مخالف للسنة مبتدع صاحب هوى ، يقول شيخ الإسلام في «المجموع» (٢٧٩/٣) : «والخوارج هم أول من كفر المسلمين ، يكفرون بالذنوب ، ويكفرون من خالفهم في بدعتهم ، ويستحلون دمه وماله .

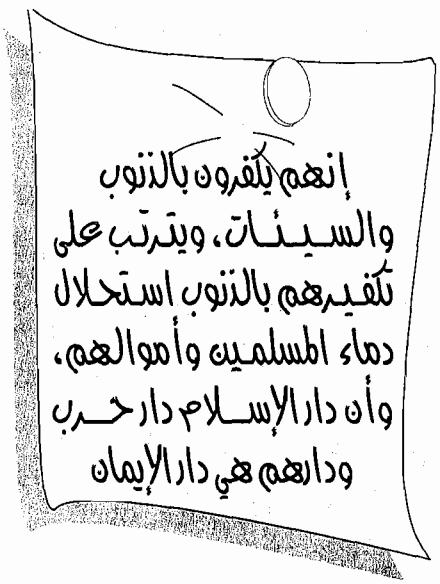

(١) انظر لزاماً كلام شيخ الإسلام في الفرق بين دار الإسلام ودار الكفر في «المجموع» (٣٨٢/١٨) .
(٢) انظر أيضاً «المجموع» (٣٥/١٣) .
(٣) غلط الخوارج يحصل من جهة النقص في الصبر والحلم والعلم ، انظر «المجموع» (١٢٨/٢٨) .

وهذه حال أهل البدع يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها . وأهل السنة والجماعة يتبعون الكتاب والسنة ويطيعون الله ورسوله ؛ فيتبعون الحق ، ويرحمون الخَلْقَ» اهـ .

والخوارج يمهدون لبدعتهم ـ قبل الشروع فيها ـ بمقالات بدعيَّة ، وتكتلات حزبيَّة ،

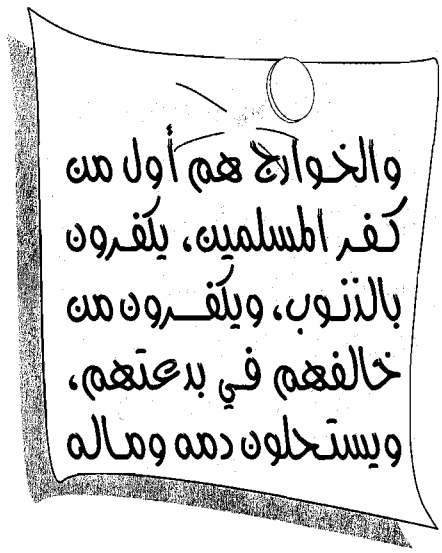

وأطروحات فكرية . . . ومع ذلك ، فهم يرصدون الواقع ، ويتتبعون الأحداث لإيجاد أرضية صالحة ينطلقون منها لتحقيق أهدافهم ومطلوبهم ، ولهذا فمدار طرحهم وتنظيرهم ـ في هذه المرحلة ـ يتركز على :

١- الانتساب إلى الأسماء العامة؛ دون الاسم الخاص لمنهج سلف الأمة من أصحاب النبيﷺ :

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في «المجموع» (١٥٣/٤) ـ عند الكلام على تستر أهل البدع بمذهب السلف ـ : « . . . بل الطوائف المشهورة بالبدعة ، كالخوارج والروافض لا يدّعون أنهم على مذهب السلف ، بل هؤلاء يكفرون جمهور السلف . . . وكذلك الخوارج قد كفروا عثمان ، وعلياً ، وجمهور المسلمين من الصحابة والتابعين ؛ فكيف يزعمون أنهم على مذهب السلف؟»[1] .

فائدة:

بل يضطر المؤمن المستضعف ـ في بلاد أهل البدع كبدع الخوارج وغيرهم ـ إلى كتم إيمانه واستتاره ومنهجه ، يقول شيخ الإسلام في «المجموع» (١٤٩/٤) : «ليس مذهب السلف مما يتستر به إلا في بلاد أهل البدع ؛ مثل بلاد الرافضة والخوارج ؛ فإن المؤمن المستضعف هناك قد يكتم إيمانه واستتاره ؛ كما كتم مؤمن آل فرعون إيمانه ؛ وكما كان كثير من المؤمنين يكتم إيمانه ، حين كانوا في دار الحرب» .

(١) قال شيخ الإسلام في «المجموع» (١٥٥/٤) : «**فعلم أن شعار أهل البدع: هو ترك انتحال اتباع السلف**» ؛ فتأمل .

٢- تتبع أخطاء المنتسبين للسلف؛ حتى في الأمور الاجتهادية:

يقول شيخ الإسلام في «المجموع» (١٥٥/٤) ـ عند كلامه على أشهر الطوائف بالبدعة ، وتركهم اتباع السلف ـ : «وإن كان من أسباب انتقاص هؤلاء المبتدعة للسلف ما حصل في المنتسبين إليهم من نوع تقصير وعدوان ، **وما كان من بعضهم من أمور اجتهادية الصواب في خلافها** ، فإن ما حصل من ذلك صار فتنة للمخالف لهم : ضل به ضلالاً كبيراً» .

٣- أهل الحديث عند الخوارج كالصائل يدفع بكل شيء[١] :

يقول شيخ الإسلام في «المجموع» (١٦١/٢٠) : «فلا تجد قط مبتدعاً إلا وهو يحب كتمان النصوص التي تخالفه ويبغضها ، ويبغض إظهارها وروايتها والتحدث بها ، ويبغض من يفعل ذلك ، كما قال السلف : ما ابتدع أحد بدعة إلا نزعت حلاوة الحديث من قلبه» أ . هـ .

٤- تتبع أخطاء الحكام، وتهييج العامة عليهم، ثم الطعن فيهم وتكفيرهم[٢] .

المحور السادس: الخوارج وساعة الصفر:

لم يقف شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ عند تحديد بدعة الخوارج وأصولها ومنشأ الغلط فيها ولوازمها فحسب ؛ بل كشف عن مسائل هي أخفى من ذلك ؛ تمثل المرحلة الفعليّة (العمليّة) الأخيرة عند الخوارج ؛ فهم يوقّتون لخروجهم ـ زمناً ومكاناً ـ على أرضية جهاديّة ـ زعموا ـ بعناصر خروج متزاوجة ! تمهيداً لعرس شيطانهم :

أولاً: أرضية الخروج وتوقيته:

لا بد أن يجد الخوارج على أرض الواقع (سبباً) أو (مسوِّغاً) لخروجهم ، بعد أن مهدوا له ، وتحزبوا عليه ، وائتلفوا في خدمته ؛ فالغالب أن الخوارج يخرجون **عقب الفتن الكبار** (!) ، وقد كشف شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ هذا التدرج (**السياسي**) الخفي ؛ فقال في «المجموع» (٤٨٩/٢٨) ـ عند الكلام على اشتمال مذاهب الرافضة على شر ما اشتملت عليه مذاهب الخوارج ـ : «وذلك لأن الخوارج كانوا أول أهل الأهواء خروجاً عن السنة والجماعة ؛ مع وجود بقية الخلفاء الراشدين ، وبقايا المهاجرين والأنصار ، وظهور

(١) وهذا قدر مشترك وسمة عامة لأهل البدع .

(٢) انظر «المجموع» (٣٥/١٣) .

العلم والإيمان ، والعدل في الأمة ، وإشراق نور النبوة وسلطان الحجة ، وسلطان القدرة ؛ حيث أظهر الله دينه على الدين كله بالحجة والقدرة .

وكان سبب خروجهم ما فعله أمير المؤمنين عثمان وعلي ومن معهما من الأنواع التي فيها تأويل؛ فلم يحتملوا ذلك، وجعلوا موارد الإجتهاد ـ بل الحسنات ـ ذنوباً، وجعلوا الذنوب كفراً ، ولهذا لم يخرجوا في زمن أبي بكر وعمر ؛ لانتفاء تلك التأويلات وضعفهم» .

إذن ؛ هم يظهرون عند أمرين :

(**أولهما**) : الملائمة بين تأويلاتهم البدعية وأحداث الواقع وفتنه .

(**الثاني**) : مع قوة شوكتهم وكثرة عددهم .

ثانياً: عناصر الخروج:

تميّز الخوارج بالإمام والجماعة والدار : فجماعتهم قد فارقت جماعة المسلمين أولاً ، وهم يوالون على بدعتهم ويعادون عليها ثانياً[1] . ثم إن أمامهم هو المنازع لأئمة المسلمين ؛ ولهذا تلتقي بدعة الخوارج مع بدعة الرافضة في موضوع الإمامة والخلافة ، وتوابع ذلك من الأعمال والأحكام الشرعية[2] .

أما دارهم فهي دار هجرة وإيمان ، ودار المسلمين ـ عندهم ـ دار كفر وحرب .

يقول شيخ الإسلام ـ في بيان عناصر وجودهم ـ في «المجموع» (١٣/٣٥) : «ولكن

لم يقف شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ عند تحديد بدعة الخوارج وأصولها ومنشأ الغلط فيها ولوازمها فحسب؛ بل كشف عن مسائل هي أخفى من ذلك؛ تمثل المرحلة الفعليّة (العمليّة). الأخيرة عند الخوارج؛ فهم يوقّتون لخروجهم ـ زمناً ومكاناً ـ على أرضية جهاديّة ـ زعموا ـ بعناصر خروج متزاوجة ! تمهيداً لعرس شيطانهم

(١) هذه سمة عامة للمتحزبين من أهل الأهواء والبدع ، انظر «المجموع» (٣/٣٤٩) .

(٢) انظر «المجموع» (١٠/٣٥٦) .

الشيعة لم يكن لهم ـ في ذلك الزمان ـ جماعة ولا إمام ، ولا دار ولا سيف يقاتلون به المسلمين ؛ وإنما كان هذا للخوارج **تميّزوا بالإمام والجماعة والدار** ، وسموا دارهم دار الهجرة ، وجعلوا دار المسلمين دار كفر وحرب» أ . هـ .

متى يظهر شيطان الخوارج؟

إذا تزوجتْ بدعةُ التكفير ببدعة الخروج على جماعة المسلمين وإمامهم واشتغل العروسان بالعُرس[1] ، وبدأ الخوالف في إدارة مجامع الفتن ؛ طاف طائف بينهم ؛ ليقدم للمدعوين ـ الحماسيّين ـ ألواناً من الإنحراف عن العقيدة والمنهج بحلية التصحيح والبيان ، وعلى طبق مزخرف ظاهره الزهد والورع ، وباطنه الخراب والدمار ؛ وقد نصبت الخيام ، وتزاور الخلان ، وتحزب الأقران ، وبُذلت الأموال ، ووُزعت الأدوار ظناً منهم أنها صولة الجهاد !!

ولكن هيهات ؛ إنها صولة شيطان الخوارج عند غفلة أهل الحق وافتراقهم ، قال شيخ الإسلام في «المجموع» (٨٩/١٩) : «فالطاعن في شيء من حكمه [أي : حكم النبي ﷺ] أو قسمه ـ كالخوارج ـ طاعن في كتاب الله مخالف لسنة رسول الله ، مفارق لجماعة المسلمين ، **وكان شيطان الخوارج مقموعاً لما كان المسلمون مجتمعين في عهد الخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان، فلما افترقت الأمة في خلافة علي رضي الله عنه؛ وجد شيطان الخوارج موضع الخروج** ، فخرجوا ، وكفروا علياً ومعاوية ومن والاهما ، فقاتلهم أولى الطائفتين بالحق علي ابن أبي طالب ؛ كما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال : «**تمرق مارقة على حين فرقة من الناس تقتلهم أولى الطائفتين بالحق . . .**»[2] اهـ .

رحم الله ـ تعالى ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ، على ما كشف لنا من خفايا هذه البدعة ، وأصولها ولوازمها ؛ وأثرها الخطير على واقع الأمة ـ لا سيما عند افتراقها وضعفها ـ .

فما أحوجنا ـ جميعاً ـ إلى كتبه ، وكتب سائر علماء الأمة المحررين ؛ لفهم قواعد الدين وأصول الشريعة ، والله ـ تعالى ـ وحده الهادي ـ في حال الفتن والاستضعاف ـ إلى سواء السبيل .

* * *

(١) انظر كلام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢٢٣/١) عن شيخه ابن تيمية في موضوع التزاوج بين البدع .

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ (١٦٦/٧ النووي) .

❖ الحلقة الأولى

منهج الإصلاح عند الشاطبي

● بقلم الشيخ: أبي عبيدة مشهور بن حسن

الشاطبي مجدّد ومصلح ، وتجديده في علم (المقاصد) ، وتكاد تجتمع كلمة العلماء والمطّلعين على أن الشاطبي هو مبتدع هذا العلم (المقاصد) ؛ كما ابتدع سيبويه علم النحو ، وابتدع الخليل بن أحمد علم العروض ، وأنه بنى في كتابه «الموافقات» هرماً شامخاً لهذا العلم ، وحلَّل فيه مقاصد الشريعة والمصالح التي بيَّنت أحكامها بصورة تفصيلية ، لا تكاد توجد في غيره[1] .

أما (الإصلاح) فبلغ شأوه عنده في كتابه الآخر «الاعتصام» ، ولا تنحصر فائدة هذا الكتاب في كشف (البدع) وتأصيلها من ناحية أصولية ، والعمل على استئصال ما كان شائعاً منها في عصره ، ولكنه تضمن أصول الإصلاح التي انطلقت محاربة البدع منها .

وكلا الكتابين «الموافقات» و«الاعتصام» لهما الأثر البالغ على الإصلاح والمصلحين في العصر الراهن .

وسبق في العدد الماضي تقرير أن الشاطبي حسنة من حسنات ابن تيمية ، وأن التأثُّر به ظاهر ، ووقعت للشاطبي بعض كتب ابن تيمية ، واستفاد منها .

ونزيد هنا تقريراً أن الشاطبي ـ في عصره ـ كان مصلحاً في الجانب الغربي للأمة الإسلامية ، أما مصلح الجناح الشرقي ؛ فهو ابن تيمية ، وابن القيم .

(١) أسهبتُ في تقديمي لـ«الموافقات» (١/٢٥ - ٢٩) بذكر النقولات عن العلماء التي تثبت أن الشاطبي رائد هذا العلم .

وقد كشف محمد رشيد رضا[1] ـ رحمه الله تعالى ـ عن الموقع اللائق بكتاب «الاعتصام» في (الإصلاح) بقوله :

«اتفق علماء الاجتماع والسياسة والمؤرخون من الأمم المختلفة على أن العرب ما نهضوا نهضتهم الأخيرة بالمدنية والعمران إلا بتأثير الإسلام في جمع كلمتهم ، وإصلاح شؤونهم النفسية والعملية ؛ ولكن اضطرب كثير من الناس في سبب ضعف المسلمين بعد قوتهم وذهاب ملكهم وحضارتهم ؛ فنسب بعضهم كل ذلك إلى دينهم ، ومَن يتكلّم في ذلك على بصيرة يثبت أن الدين الذي كان سبب الصلاح والإصلاح ، لا يمكن أن يكون سبب الفساد والاختلال ؛ لأن العلة الواحدة لا يصدر عنها معلولات متناقضة ، فإذا كان لدين المسلمين تأثير في سوء حال خلفهم ، فلا بد أن يكون ذلك من جهة غير الجهة التي صلحت بها حال سلفهم ، وما هي إلا البدع والمحدثات التي فرّقت جماعتهم ، وزحزحتهم عن الصراط المستقيم .

من أجل ذلك كان تحرير مسائل البدع والابتداع مما ينفع المسلمين في أمر دينهم وأمر دنياهم ، ويكون أعظم عون لدعاة الإصلاح الإسلامي على سعيهم . وقد كتب كثير من العلماء في البدع ، وكان أكثر ما كتبوا في الترهيب والتنفير ، والرد على المبتدعين . ولكن الفِرق التي يردّ بعضها على بعض يدّعي كل منها أنه هو المحق ، وأن غيره الضال والمبتدع : إما بالإحداث في الدين ، وإما بجهل مقاصده ، والجمود على ظواهره ، **وما رأينا أحداً منهم هُدِيَ إلى ما هُدِيَ إليه (أبو إسحاق الشاطبي) من البحث العلمي الأصولي في هذا الموضوع، وتقسيمه إلى أبواب يدخل في كل واحد منها فصول كثيرة .**

لولا أن هذا الكتاب أُلِّف في عصر ضعف العلم والدين في المسلمين لكان مبدأ نهضة جديدة لإحياء السُّنّة، وإصلاح شئون الأخلاق والاجتماع، ولكان المصنف بهذا الكتاب ويصنوه كتاب «الموافقات» . الذي لم يسبق إلى مثله سابق أيضاً . من أعظم المجددين في

(١) لم يقف السيد رضا عند التأثر بالشاطبي بالمقاصد ، وإنما كان تأثير الشاطبي فيه بالغاً حده بكتاب «الاعتصام» ؛ فإن اتجاهه منصباً على الدعوة السلفية ، فوجد في هذا الكتاب بغيته ، ومن المفيد أن أشير هنا إلى أن شيخنا الألباني - رحمه الله تعالى - عرف (الدعوة السلفية) في أول أمره عن طريق مجلة المنار .

الإسلام ، فمثله كمثل الحكيم الاجتماعي عبدالرحمن بن خلدون ، كل منهما جاء بما لم يُسبق إلى مثله ، ولم تنتفع الأُمة ـ كما كان يجب ـ بعلمه .

كتاب «الموافقات» لا ندَّ له في بابه (أصول الفقه وحِكَم الشريعة وأسرارها) ، وكتاب «الاعتصام» لا ندَّ له في بابه ، فهو ممتع مشبع ، وإنْ لم يتمَّه[1] المصنف رحمه الله تعالى»[2] .

الشاطبي مصلح سلفي:

والعجب أن بعضهم عدّ الشاطبي مجدّداً عقلانياً[3] !! والحق أن تخليص الإسلام من البدع ، والرجوع به إلى ما كان عليه في الصدر الأول ، هو قوام الإصلاح الذي دعا إليه الشاطبي ، وأن إصلاحه كان سلفيّاً خالصاً ، ينهض على إحياء السنة ، وإماتة البدعة ، والعمل بأصول الإسلام وشريعته على النحو الذي كان عليه المسلمون الأولون ، فهو لم يتجاوز فيما يدعو إليه أصول الدين وفروعه ، فاسمع إليه وهو يقول :

«ابتدأتُ بأصول الدين عملاً واعتقاداً ، ثم بفروعه المبنية على تلك الأصول ، وفي خلال ذلك أتبين ما هو من السنن أو من البدع ، كما أتبيّن ما هو من الجائز ، وما هو من الممتنع ، وأعرض ذلك على علم الأصول الدينية والفقهية»[4] .

وأما عن مصادر فكره الإصلاحي ، فهو يكشف لنا عنها بقوله : «وكذلك جعل الله العظيم لبيان السنة عن البدعة ناساً من عبيده بحثوا عن أغراض الشريعة كتاباً وسنة ، وكما كان عليه السلف الصالحون ، وداوم عليه الصحابة والتابعون ، وردّوا على أهل البدع والأهواء ، حتى تميّز أتباع الحق عن أتباع الهوى»[5] .

---

(١) المتبقي منه قليل جداً ، فالمصنف وضعه في عشرة أبواب .

(٢) مقدمة رشيد رضا لـ«الاعتصام» (١/٣ - ٥) .

(٣) ذهب محمد عابد الجابري في مقالة له نشرت في مجلة «العربي» (عدد ٣٣٤/ سنة ١٩٨٦م ، ص٢٥ - ٢٩) بعنوان (رشدية عربية أم لاتينية) إلى أن الشاطبي في تجديده نهل من عقلانية ابن رشد ! نعم ؛ أخذ الشاطبي من ابن رشد كما صرّح هو بذلك في بعض المواطن ، ولكنه لم يتأثر بعقلانيته إطلاقاً ، وكان الرجلان يختلفان اختلافاً جذرياً ، فلكل منهما منهجه ، فابن رشد يسلط العقل على النص ، والشاطبي يعد ذلك من البدع ، وصرح في مواطن عديدة في كتابه هذا أن هذا منهجاً لأهل البدع .

(٤) الاعتصام (١/١٤) .

(٥) الموافقات (٢/٩٤) .

فالكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة على وجه الدوام هي مصادر إصلاحه ، ولا يكون ذلك بمعزل عن أغراض الشريعة ومقاصدها ، ومن خلال ذلك يتضح (الثوابت من المتغيرات) في الاجتهادات ، ويقع التلاءم التام بين (ألفاظ النصوص) و(معانيها) .

الساعة ، فأقوى ما كان أهل الإسلام في دينهم وأعمالهم ويقينهم وأحوالهم في أول الإسلام»[1] .

ويقرِّر الشاطبي أن الإصلاح بمنهج السلف إنما هو ـ في واقع الأمر ـ امتثال لأمر الله ، فيقول : «فالقرآن إذن هو المتبوع على الحقيقة ،

والعجب أن بعضهم عدّ الشاطبي مجدّداً عقلانياً !! والحق أن تخليص الإسلام من البدع، والرجوع به إلى ما كان عليه في الصدر الأول، هو قوام الإصلاح الذي دعا إليه الشاطبي، وأن إصلاحه كان سلفيّاً خالصاً، ينهض على إحياء السنة، وإماتة البدعة، والعمل بأصول الإسلام وشريعته على النحو الذي كان عليه المسلمون الأولون

وكان الشاطبي ينظر إلى السلف الصالح نظرة مثالية ، فاسمع إليه وهو يقول :

«لا يمكن أن يبلغ المتأخِّرون أبداً مبالغ المتقدّمين ، فخيرُ القرون القرن الذين رأوا رسول الله ﷺ وآمنوا به ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، وهكذا الأمر أبداً إلى قيام

وجاءت السنة مبيّنة له ، فالمتبع للسنة متبع للقرآن ، والصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا أولى الناس بذلك»[2] ، وأن هذا الاتباع للسلف الصالح ؛ هو الذي «يعصمنا من العمل بالسنن المنسوخة لأنهم كانوا يأخذون بالأحدث فالأحدث من سنته ﷺ ، وكانوا

(١) الاعتصام (٢/٥٧) .

(٢) الاعتصام (٣/٢٧٦) .

يتسابقون إلى إحيائها ، وإحياء السنة ليس له من معنى غير العمل بها»[1] .

والسلفية بهذا المفهوم الصحيح تأتي ثمارها وبركاتها ، وتنعكس خيراتها على الأفراد والمجتمعات في الدنيا والآخرة ، ودونها «لا نهتدي سبيلاً ، ولا نعرف من مصالحنا الدنيوية إلا قليلاً على غير كمال ، ولا في مصالحنا الآخروية لا قليلاً ولا كثيراً ، بل كان كل أحد يركب هواه وإن كان فيه ما فيه ، ويرح هوى غيره»[2] ، ولا عجب في ذلك ؛ إذ هي ثمرة وحصيلة تعليم وتربية رسول الله ﷺ للمستجيبين ـ بصدق وعلم ـ له .

دوافع الإصلاح عند الشاطبي:

كان الشاطبي في إصلاحه ثابتَ الخطى ، لوضوح الأمر عنده ، من خلال معرفته حال الناس والوعاظ والعلماء في زمانه من جهة ، ومعرفة ما يلاقي المصلحون ، وما يحدث لهم من متاعب من جهة أخرى ، فها هو يقرِّر أن مواجهة الناس للمصلحين أمر مألوف لا انفكاك عنه ، ولا مفرَّ منه ، والتاريخ شاهد على أنّ كل إصلاح لا بد أن يلقى صدوداً ومحاربة ؛ لأن الناس ينفرون مما يعارض أهواءهم ، ولو كان حقاً[3] .

والشاطبي يثبّت نفسه على الألاقي التي واجهها ، ويثبّتها على احتمال الأذى بتقرير أن الكيد للمصلحين من سُنّة الله التي لا تتخلف ، وأن الشر أو الضر يزداد له بصدقه وثباته على دعوته ، وأن هذا هو الذي وقع مع رسول الله ﷺ وصحبه . ولا بد من الإشارة هنا إلى أن باعث الإصلاح كان عند هذا الإمام هو أنه واجب شرعاً ، ولا عذر للقادر عليه في إهماله ؛ فهو يقول : «إن المكلَّف إذا فهم مراد الشارع من قيام أحوال الدنيا ، وأخذ في العمل على مقتضى ما فهم ، فهو إنما يعمل من حيث طُلب منه العمل ، ويترك إذا طُلب منه الترك ، فهو أبداً في إعانة الخلق على ما هم عليه من إقامة المصالح باليد واللسان والقلب»[4] ، وهذا هو الذي حصل معه نفسه ، فإنه أخذ بالحزم والعزم ولم يأبَهْ بكراهة المخالف ، وكان في ذلك محتسباً متجرداً للحق يدور معه ، ولذا نُبز بأشياء هو منها بريء[5] .

ومن النصوص التي أبرزت دوافعه في

(١) الموافقات (٣/٣٢٧) .
(٢) الاعتصام (١/١٩٧) .
(٣) الموافقات (٢/٣٣٧ - بتحقيقي) .
(٤) «الاعتصام» (١/٣٥) .
(٥) انظر «الاعتصام» (١/١٣ - ١٥ ، ١٨ - ٢٤ ، ٢٩ - ٣٠) .

الإصلاح ، قوله بعد كلام :

«فتردَّد النظر بين أن أتبع السُّنّة على شرط مخالفة ما اعتاد الناس ؛ فلا بد من حصول نحو ممّا حصل لمخالفي العوائد ـ لا سيما إذا ادعى أهلها أنّ ما هم عليه هو السنة لا سواها ـ ؛ إلا أن في ذلك العبء الثقيل مع ما فيه من الأجر الجزيل ، وبين أنْ أتّبعهم على شرط مخالفة السنَّة والسَّلف الصَّالح ، فأدخل تحت ترجمة الضُّلال عائذاً بالله من ذلك ؛ إلا أني أوافق المعتاد ، وأُعَد من المؤالفين لا المخالفين؟!

فرأيت أن الهلاك في اتباع السنة هو النجاة ، وأن الناس لن يُغنوا عني من الله شيئاً ، فأخذتُ في ذلك على حكم التدريج في بعض الأمور ، فقامت عليَّ القيامة ، وتواترت عليَّ الملامة ، وفَوَّقَ إليَّ العتابُ سهامَه ، ونُسِبتُ إلى البدعة والضلالة ، وأُنزلتُ منزلة أهل الغباوة والجهالة»[1] .

وقوله أيضاً :

«وعلى طوال العهد ودوام النظر اجتمع لي في البدع والسنن أصولٌ قَدَّرتْ أحكامَها الشريعةُ ، وفروعٌ طالت أفنانها ، لكنها تنتظمها تلك الأصول ، وقلَّما توجد على الترتيب الذي سنح في الخاطر ، فمالت إلى بثِّها النفس ، ورأت أنه من الأكيد الطلب ؛ لما فيه من رفع الالتباس الناشئ بين السنن والبدع ؛ **لأنه لما كثرت البدع، وعمَّ ضررُها، واستطار شررُها، ودام الإكباب على العلم بها، والسكوت من المتأخرين عن الإنكار لها، وخَلَفَتْ بعدَهم خلوفٌ ذهلوا أو غفلوا عن القيام بفرض القيام فيها ؛ صارت كأنها سنن مقرَّرات، وشرائع من صاحب الشريعة محرَّرات، فاختلط المشروع بغيره، فعاد الراجع إلى محض السنة كالخارج عنها كما تقدَّم، فالتبس بعضها ببعض** ، فتأكّد الوجوب بالنسبة إلى مَن عنده فيها علم ، وقلَّما صُنِّف فيها على الخصوص تصنيف ، وما صُنِّف فيها ؛ فغير كاف في هذه المواقف .

مع أنّ الداخل في هذا الأمر اليوم فاقدُ المساعد عديمُ المعين : فالمُوالي له يخلد به إلى الأرض ، ويُلْقي له باليد ، إلى العجز عن بثّ الحق بعد رسوخ العوائد في القلوب . والمعادي يرميه بالدِّرْدَبِيس[2] ، ويروم أخذه بالعذاب

(١) الاعتصام (١/١٨) .

(٢) تحرفت في جميع المطبوعات إلى «بالأردبيس» !! ولا معنى له ، وصوابه : ما أثبتناه ، وفي «القاموس» (ص٧٠١) : «الدِّرْدَبيس : الداهية ، والشيخ ، والعجوز الفانية ، وخَرَزَةٌ للحب» وبمعنى الشيخ بكسر الدّال ، وهكذا كتبه أبو عمر الإيادي ، قال ابن بري : شاهد الدّاهية قول جُرَيّ الكاهلي :

ولو جرَّبْتَني في ذاك يوماً رضيت ، وقلت : أنتَ الدِّرْدَبيسُ

البـئـيس ؛ لأنه يرد عـوائده الراسـخـة في القلوب ، المتداولة في الأعـمـال ؛ ديناً يُتَعَبَّد به ، وشـريعـة يُسْلَك عليـهـا ، لا حـجـة له إلا عـمـل الآباء والأجـداد ، مع بعض الأشـيـاخ المعلّمين ، كانوا من أهل النظر في هذه الأمور أم لا ، ولم يلتفتوا إلى أنهم عند موافقـتـهم للآباء والأشياخ مخالفون للسلف الصالح .

فالمتعرّض لمثل هذا الأمر ينحو نحو عمر بن عـبـدالعـزيز رضي الله عنه في العـمـل ؛ حيث قال :

«ألا وإني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله، قـد فني عليـه الكبـيـر، وكَـبُـر عليـه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليـه الأعـرابي، حـتى حـسـبـوه ديناً لا يرون الحق غيره» .

وكذلك ما نحن بصدد الكلام عليه ؛ غير أنه أمر لا سبيل إلى إهماله ، ولا يسع أحداً ممّن له منّة فيه إلا الأخذ بالحزم والعزم في بثّه بعد تحصيله على كـمـاله ، وإن كـره المخالف ؛ فكراهيته لا حجة فيـهـا على الحق ألا يُرْفَع منارُه ، ولا تخسف أنواره»[1] .

❖ بواعث الإصلاح عند الشاطبي:

كـشـف الشـيـخ مـحـمـد بن عـاشـور عن بواعث الإصلاح عند الإمام الشاطبي بقوله :

«كـان توالي الصـدمـات النفـسـيـة ، والمفاجآت الاعتقادية والسياسية ، في تعاقب دعـوة الفـاطمـيين والمرابطين والموحـدين ؛ وتصارع الدول المؤمنية والحفصية والمرينية قد أوقف الناس مدهوشين حائرين ، أمام خليط من المذاهب ، والنحل وجعجعة من الدعاوى المضطربة ، يسـمـعـون دويّهـا ولا يفـهـمـون معناها ، حتى كاد مفهوم الدين أن يتعطّل ، بانبهام المبادئ ، وانطماس المثل .

فكان تخرّج الشاطبي بعلمه الواسع في الدين ، وفهمه العميق لأسراره ؛ قد رسم في ذهنه صورة جلية واضحة المعالم ، من الشريعة الإسلامية ؛ وصورة كاملة للمجتمع المثالي المتكوّن بتلك المبادئ الإسلامية السامية ، فلما مدّ بصره إلى حياة المجتمع الأندلسي ، بما فيها من علل وأدواء ، ومظاهر شوهاء ، ارتعد فزعاً من اختلاف تلك الصورة المؤلمة ، عن الصورة المشرقة الملهمة التي رسمتها في ذهنه يد الدراسة العلمية الحكيمة .

وكانت قوة يقينه الإيماني ، وبعد همته العقلية ، يعصمانه من أن يستسلم إلى اليأس ، ويركن إلى اعتقاد أن الدين النظري شيء ، والدين الواقعي شيء آخر ، كما فعل إخوان الصفاء وأبو العلاء المعري ؛ ولا أن ينظر

(١) الاعتصام (٢٩/١ - ٣٠) .

باطمئنان إلى اعتبار الحقيقة الدينية في الإخلاص الباطني ، وعزل حظ الحياة العلمية عنها ، كما ذهب إلى ذلك كثير من المتصوفين ، فلذلك أقبل الشاطبي ، بعزيمة غلابة على فحص الواقع الديني وتمحيصه ، موقناً بأن الحقيقة المثالية غير نابية عن الواقع العملي ، ولكنها موجودة فيه عن تفكّك وتبعثر ، والتباس واندراس .

فقدر أن حقيقة الدين لا يمكن أن تكون إلا واحدة غير مختلفة ، وأن الدعوات الابتداعية التي نفخت فيها أبواق العصبيات ، هي التي أحدثت في الدين ، ما يبدو بين صوره من تخالف واضطراب ، وتمثّلت له هذه النظرية مجسمة في ما ثار بينه وبين شيخه وشيخ الأندلس قاطبة ، أبي سعيد ابن لب في أمور تتصل بالعبادات ، كان الشاطبي ينكرها ، وأبو سعيد يتأوّل لها ؛ وأخرى من الأحكام المدنية ، كان يميل هو إلى مشروعيتها ، ويرى أبو سعيد منعها ، كمسألة توظيف الغرامات على أهالي البلدان ؛ لإقامة مصالحهم المشتركة .

وفي سبيل إقامة الدعامة الأساسية لنظريته ، وهي وحدة حقيقة الدين ، فيما أشكل عليه وحيّره وأغمّه ، من أمر اختلاف الأقوال ، وقضية الترجيح فيها والتضعيف ، فلم يشأ أن يتقدم خطوة قبل أن يزيح عن نظريته الأساسية ، ما غم عليها من إشكال ، فأراد أن يجعل مقدمة ذلك إيضاح النظرية المخالفة بجمع عناصرها ، وإيراد حججها ، كي يتمكن بذلك من ضبط جهة الجدة والابتكار في نظريته ، ويتمكن من اختيار براهينها .

ففزع إلى علمي الشريعة في تحقيق الفقه وتطبيقه ، من خارج الأندلس : وهما إمام تونس الشيخ ابن عرفة ، وفقيه فاس أبو العباس أحمد بن قاسم القباب ، فكتب إليهما في إنصاف وتواضع وأدب وإنكار للذات ، بما عنده من المشكلات .

واطّرد ما بينه وبين إمامي تونس وفاس تبادل التحارير في تلك المسائل ابتداء ومراجعة ، بما كان له أساساً لضبط فكرته وإبرازها مختمرة ناضجة ، على ما بينه وبينهما من الاختلاف .

كما فزع في أمر الصوفية ومقالاتهم ، ونسبة ما بين الإخلاص الباطني والتكاليف العملية عندهم ، إلى أعظم رجال التصوف يومئذ ، وأبعدهم صيتاً في عامة البلاد المغربية ، وهو إمام فاس الشيخ ابن عباد الرندي ، فاطردت بينه وبينه المراجعات أيضاً حتى اتضحت معالم الطريقة التي يسير كل عليها ، فانتهى الأمر إلى تسليم الشيخ ابن عباد للإمام الشاطبي صواب ما راجعه به ، كما أخبر بذلك الشاطبي في كتاب «الموافقات» .

ولما اتضحت للشاطبي فكرته واستقامت أصولها، تقدم يعلن بها للناس صريحة جريئة، فقامت في وجهه ضجة الإنكار التي لم تسلم منها دعوة من الدعوات الإصلاحية، ولا فكرة من الأفكار المجددة؛ فتألّب الناس عليه، بما عظم عليهم من أمر مفارقة البدع المألوفة، وآذوه أذى بليغاً، طفحت الصحائف الأولى من كتاب «الاعتصام» بوصفه وفي الشكوى منه.

ومضى الإمام الشاطبي - مع ذلك - في طريقه غير هيّاب ولا وَجِل، فأخلص للحق، وانقطع لإبراز حقيقة الدين بتأصيل أصول علم الشريعة، والسمو عن التفاريع المختلفة المضنونة، إلى القواعد الكلية القطعية التي ينبغي أن تكون مراجع للفقيه لا محيد عنها، وعلى ذلك المنوال نسج كتابه العجيب كتاب «الموافقات»[1] الذي أبرز فيه مقاصد الشريعة، مصرّحاً بأنه قصد حمل الناس على الوسط الذي هو مجال العدل والاعتدال؛ وأخذ المتخلّفين على طريق مستقيم بين الاستصعاد والاستنزال، ليخرجوا عن انحرافي التشور والانحلال، وطرفي التناقض والمحال»[2].

ثم قال - رحمه الله تعالى - بعد كلام عن كتاب «الاعتصام» وأثره في الإصلاح:

«أما الكتاب الآخر وهو «الاعتصام» الذي هو ثمرة كفاح الشاطبي، في تقويم الدين وقمع البدع؛ فقد كان أيضاً باعثاً من أقوى بواعث النهضة الإسلامية الحاضرة، استندت إليه الحركة السلفية في المشرق والمغرب منذ أخرج للناس العلامة المرحوم[3] السيد محمد رشيد رضا من مطبعة المنار سنة ١٣٣٢ فكان فيض بيانه المتدفق، برداً وسلاماً على القلوب المتحرقة من سوء مآل العالم الإسلامي، لما حيك في نفوس المسلمين من زينة البدع.

وكان تأليف كتاب «الاعتصام»، بعد كتاب «الموافقات» ضرورة أنه يحيل في «الاعتصام» على «الموافقات»، وقد صنع فيه صنيعاً عجيباً في التفكيك بين المحدثات المذمومة، التي لا ترجع إلى أصل من أصول الدين، وبين ولائد الاجتهاد، بالرأي

(١) عملت على تحقيقه على نسخ خطية لم ينشر الكتاب عنها من قبل، وأثبت من خلالها فروقاً كثيرة مهمة أساسية في صلب الكتاب، وعملت على تخريج أحاديثه وآثاره وتوثيق نصوصه، وصنعت له فهارس علمية تبين درره وكنوزه، وصدر عن دار ابن عفان، في ستة مجلدات، والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات.

(٢) «أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي» (٧٣ - ٧٥).

(٣) تجوز هذه العبارة على كونها دعاءاً، لا تقريراً.

والمصلحة والاستحسان ، لما هو راجع إلى تطبيق أصول الدين وتحقيق مقاصده ، وبذلك أراد أن ينقض غزلاً دقيقاً كان غزله شهاب الدين القرافي على محمد بن بيان شيخه عز الدين ابن عبدالسلام ؛ إذ قسّم البدع إلى حسنة مشروعة ، ومذمومة محظورة ؛ فأبطل الشاطبي ذلك : بأن ما اعتبره القرافي بدعة حسنة ، هو حسن ولكنه ليس ببدعة ، ليتوصل بذلك إلى حصر البدع في القسم المذموم حتى لا ينفتح باب التفصيل في البدع ، فيظن أن المحاسن المطلوب استجلابها هي أمور لم يأتِ بها الدين .

وقد استهدف بنقوده ـ في هذا الكتاب ـ على نسبة واحدة ، كل من الباطنية والظاهرية ، والمتصوفين ، والموحدين : أصحاب المهدي بن تومرت ، والمبتدعين والمقلدين ، فكل موقعه كموقع الحق الفاصل ؛ لا يكاد يرضي أحداً ويؤلفه ، حتى يغضبه وينفّره .

وكذلك خلّف الشاطبي هذين الكتابين ، حجة قائمة ، ودعوة بالغة ، فكان بين ما خلف من الآثار الزكية ؛ في علوم الشريعة ، والعربية ، والأدب ، نداءً متجاوباً بين أطراف القرون ، يأخذ بالناس إلى طريق الدين المستقيم ، وأبقى عنه ذلك ذرية صالحة بما كون من الملكات الصحيحة لتلاميذه ، مثل أبي يحيى ابن عاصم وأبي بكر ابن عاصم ، وأبي العباس القصار ، فلما توفِّي سنة ٧٩٠ بقيت تلك الملكات بعده تتسلسل ، وتتوالد في أعلام الثقافة الإسلامية ، حتى جاء عصر الحاجة الأكيدة إلى الاستمداد من كتابيه ، فلبّى الناس تلك الدعوة التي كانوا لبّوها من الأصلاب وراء حجب القرون ، ولا غرو ؛ فما هي إلا دعوة إبراهيم»[1] .

أكره مضغ الباطل !!

سمع حمادُ بن سلمة أيوبَ السختياني يُسأل: مالَكَ لا تنظر في هذا . يعني الرأي .؟ فقال: قيل للحمار: ألا تجترّ؟ فقال: أكره مضغ الباطل.

(١) «أعلام الفكر الإسلامي» (ص٧٦ - ٧٧) .

الفكر التنويري في الميزان

● بقلم: الشيخ د. محمد موسى نصر

. . . نُسبوا إلى العقل ؛ لأنهم جعلوا العقل هو الحَكَم في كل شيء ؛ حتى في الأمور الغيبية التي لا تخضع للعقل في العادة ، فهم لا يجعلون الشرع هو الحَكَم ، فإن العقل عندهم قاضٍ على كل شيء من الشرع والدِّين ؛ فما وافق العقل قبلوه ، وما خالفه رفضوه ؛ ولو جاء به كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لذلك أعملوا عقولهم في ردِّ كثير من النصوص ؛ لأنها ـ بزعمهم ـ تتعارض مع العقل ، وإنما تتعارض ـ في الحقيقة ـ مع عقولهم القاصرة لا مع العقول السليمة ، فالعقل السليم لا يخالف النقل الصحيح ، وقد صنّف شيخ الإسلام ابن تيمية كتاباً حافلاً اسمه : «**درء تعارض العقل والنقل**» أو «**موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول**» .

منزلة العقل في الإسلام:

لم تهمل الشريعة الإسلامية جانب العقل حيث جعلت العقل مناط التكليف ؛ فكرَّمت ابن آدم بالعقل ، قال تعالى : ﴿**ولقد كرَّمْنا بني آدم**﴾ . وأسقط الله التكليف عن المجنون والنائم والغلام قبل الاحتلام ، ولقد دعا القرآن والسنة المطهّرة إلى الاستفادة من العقل ، والتدبُّر في خلق السموات والأرض ، والاستدلال بالآيات الكونية من خلال العقل على وجود الباري وعلى ربوبيته وألوهيته .

ولقد كرَّم الله عز وجل الإنسان لأمرين :

١- الهداية .

٢- العلم الذي لا يكون إلا بالعقل ، لذلك فالمجنون لا يمكن أن يكون عالماً ، قال تعالى : ﴿**أفمَنْ يعلمُ أنَّما أُنزِلَ إليك من ربِّكَ هو الحقُّ كمَنْ هو أعمى إنما يتذكَّرُ أولوا الألباب**﴾ .

فجعل الله الناس فريقين : عالماً وجاهلاً .

العقل لا يكون حَكَماً على الشرع:

ومع هذه الأهمية للعقل إلا أنّ الله عز وجل لم يجعل العقل حكَماً على الغيب ولا على الشرع ، إنّما حدَّ له حدوداً لم يُجزْ له تجاوزها .

فالعقل وسيلة للتوصيل إلى معرفة إبداع الله في الكون وأسرار هذه الحياة الدنيا ، وأما ما يكون من شأن الآخرة والغيب وما بعد الموت ، ومعرفة ذات الله وصفاته وأسمائه ؛ كل أولئك لا مجال للعقل أن يخوض فيها إلا من خلال نصوص الوحي ؛ فمن رام معرفة متى تقوم الساعة بعقله وحدسه ؛ تخبَّط واضطرب ولم يرجع بطائل ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿**إنَّ الله عنده علم الساعة وينزِّل الغيثَ ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت**﴾ .

العقل نعمةٌ عظيمةٌ مِن نِعَم الله على الإنسان:

إذا علمنا أنَّ العقل مِن نعم الله العظيمة على الإنسان يكن لزاماً على الإنسان العاقل أن ينتفع بعقله ، وأن يستثمره في فهم النصوص الشرعية والآيات الكونية ، لا للاستدراك على الشرع وتخطئة الوحي وتكلُّف معرفة الغيوب ، فإنَّ الذين يحكِّمون العقل في الأمور الغيبية لا يعقلون ، وهم يجهلون حكمة الله أو حكمة الشرع في جعل كثير من الأحكام الشرعية غير معقولة المعنى (أي : تعبُّدية محضة) .

هل وردت أحاديث صحيحة أو حسنة في فضل العقل؟

قال العلماء : إنه لم يصحَّ حديثٌ في فضل العقل ، وكل ما جاء في هذا الباب إما موضوع أو ضعيف ، إنّ الذين يقدِّسون العقل ويجعلونه حكَماً على النقل الصحيح لا يعقلون ؛ لأنّ العقل مخلوق من مخلوقات الله ، والخلق مهما أُوتوا من العلم والمعرفة والفهم ؛ فلن يبلغوا حقيقة ما غُيِّب عنهم ، ولو تكلَّفوا لذلك أشدّ التكلُّف ، ولذلك جاء في الحديث الحسن : «**تفكَّروا في آلاء الله ولا تفكَّروا في ذات الله**» ، ولقد نعى الله على الذين لم يهتدوا بعقولهم إلى الحق والصواب ، الذين أعرضوا عن الحق إذ جاءهم بعد أن ظهر لهم واضحاً وضوح الشمس في رائعة النهار ؛ حيث شبّههم الله بالدواب العجماء ، والأنعام السائمة التي لا تنتفع بحواسها ، قال تعالى : ﴿**أم لهم قلوبٌ لا يفقهون بها أم لهم أعين لا يبصرون بها أم لهم آذانٌ لا يسمعون بها إنْ هم**

إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً﴾ فمن وهبه الله نعمة العقل ولم يهتدِ به إلى الحق ، بل ضلَّ مع ذلك ضلالاً بعيداً بعد قيام الحجة البالغة إليه ، بل شرد من ربه شرود البعير الضالّ من أهله ؛ فهو في دركةٍ دون دركات البهائم .

تأثُّر المدرسة العقلية بالحضارة الغربية الزائفة:

لقد تأثر أرباب هذه المدرسة الفاسدة بالحضارة الغربية الزائفة ، فأكثرهم ممن تلقوا علومهم عن الغرب ، وتتلمذوا على أيدي المستشرقين ، ودرسوا الفلسفة وعلم الكلام والمنطق ، وتشبّعوا بآراء أهل البدع كالمعتزلة وغيرهم ، ولقد انبهروا بل فتنوا بما وصلت إليه المجتمعات الغربية من تقدم علمي وتقني ؛ فسعوا جاهدين للعمل على التقريب بين الإسلام وبين الثقافة الغربية مع ما بينهما من تنافر وتناقض وبُعد ، كما ما بين المشرق والمغرب ، فدعوا إلى التنازل عن مسلّمات وثوابت أصلية ، وعملوا على ليِّ أعناق النصوص الشرعية ، أو تعطيلها ، أو تأويلها تأويلاً فاسداً يُخرجها عن نصِّها وروحها ، وشقوا لأنفسهم طريقاً وعراً ليجمعوا بين المتناقضات ، فتحكموا وتهكموا على كثير من النصوص بأهوائهم وآرائهم الفاسدة الكاسدة العاطلة الباطلة ؛ إرضاءً لأساتذتهم المستشرقين والمستغربين ، ولمن كان على شاكلتهم ؛ كلّ ذلك جهلاً منهم وضلالاً وإضلالاً ، فترى الواحد منهم لا يعرف من الدين إلا اسمه ، ولا يعرف من الإسلام إلا رسمه ؛ فلا ظاهرهم أصلحوه ، ولا باطنهم من الانحراف والشكّ والضلال خلّصوه ؛ فتراهم لا يعملون بشرع الله ، ولا يلتزمون تعاليم الله ، ويرون الإيمان ما وقر في القلب دون ما ظهر على الجوارح ، وهذا مذهب المرجئة القدامى والمعاصرين ، وهو مذهب مرجئة العصر العقلانيين ، الذين يفهمون الشرع بعيداً عن وحي الكتاب والسنة وسبيل العلماء العاملين من الأئمة المتَّبَعين والعلماء الربانيين في كلِّ عصرٍ وأوان .

أبرز رموز المدرسة العقلانية المعاصرة:

١ـ محمد عمارة .
٢ـ محمد الغزالي السقا .
٣ـ يوسف القرضاوي .
٤ـ فهمي هويدي (الكاتب) .
٥ـ حسن الترابي السوداني .
٦ـ المفكّر رجاء جارودي الفرنسي .
٧ـ جابر العلواني .

* * *

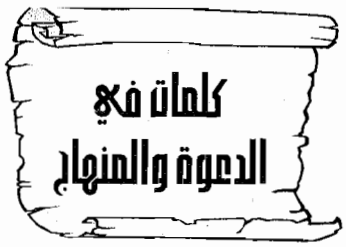

من آثار السلف في الحكم على المرء بقرينه

● بقلم: جمال الحارثي

قال أبو قلابة : «قاتل الله الشاعر حين يقول :

عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينه
فكل قرين بالمقـــارن يقتـدي»

قلت : وكـأن أبا قـلابة مـعـجب بهـذا البيت ، وهو لعدي بن زيد العبادي .

قال الأصمعي : لـم أر بيتاً قط أشبـه بالسنّة من قـول عـدي ـ هذا ـ «الإبانة» : (٤٣٩/٢) .

قـال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ : قـال رسـول الله ﷺ : «المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل»[1] .

قـال ابن مـسـعـود ـ رضي الله عنه ـ : «اعـتـبـروا الناس بأخـدانهم ، المسلم يتـبع المسلم ، والفاجـر يتبع الفـاجـر» . «الإبانة» (٤٧٧/٢ رقم ٥٠٢) ، والشق الأول : أخرجه البغوي في «شرح السنّة» : (٧٠/١٣) .

وقـال : «إنما يماشي الرّجل ويصـاحب من يحـبـه ومن هو مـثله» . «الإبانة» : (٤٧٦/٢ رقم ٤٩٩) .

وقال ـ أيضاً ـ : «اعتبروا الناس بأخدانهم ؛ فإن الرجل لا يخادن إلا من يعجبه نحوه» . «الإبانة» (٤٧٧/٢ رقم ٤٩٩) .

قـال أبو الدرداء : «من فـقـه الرجل ممشاه ، ومـدخله ، ومـجلسـه» . «الإبانة» (٤٦٤/٢ رقم ٤٥٩ ، ٤٦٠) .

عن يحيى بن أبي كـثـيـر قـال : قـال سليـمـان بن داود ـ عليـه السـلام ـ : «لا تحكموا على أحد بشيء حتى تنظروا من يخادن» . «الإبانة» : (٤٨٠/٢ رقم ٥١٤) .

قال أبو حاتم : وقدم موسى بن عقبة الصوري بغداد ؛ فذكر لأحمد بن حنبل ،

(١) صحيح ـ انظر «السلسلة الصحيحة» (رقم ٩٢٧) للعلامة الألباني .

فـقـال : «انظروا على من نزل ، وإلى من يأوي» . «الإبانة» (٢/٤٨٠ رقم ٥١٤) .

قـال قـتـادة : «إنا والله مـا رأينا الرجل يصـاحب من الناس إلا مـثله وشكله ؛ فصاحبوا الصالحين من عباد الله لعلكم أن تكونوا معهم أو مثلهم» . «الإبانة» (٢/٤٧٧ رقم ٥٠٠) .

قال شعبة : «وجدت مكتوباً عندي : إنما يصاحب الرجل من يحب» . «الإبانة» (٢/٤٥٢ رقم ٤١٩ ، ٤٢٠) .

قال الأوزاعي : «من ستر عنّا بدعته لم تخف علينا ألفَتُه» . «الإبانة» (٢/٤٧٦ رقم ٤٩٨) .

دُعي أيوب السختياني إلى غسل ميت ، فخرج مع القوم ؛ فلمّا كشف عن وجه الميت عرفه ، فقال : «أقبلوا قبل صاحبكم ، فلست أغسله ، رأيته يماشي صاحب بدعة» . «الإبانة» (٢/٤٧٨ رقم ٥٠٣) .

قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : «اعتبروا الأرض بأسمائها ، واعتبروا الصاحب بالصاحب» . «الإبانة» (٢/٤٧٩ رقم ٥٠٩ ، ٥١٠) .

كان محمد بن عبيدالله الغلابي يقول : «يتكاتم أهل الأهواء كل شيء إلا التآلف والصحبة» . «الإبانة» (١/٢٠٥ رقم٤٤ و٢/٤٨٢ رقم ٥١٨) .

قال معاذ بن معاذ ليحيى بن سعيد : «يا أبا سعيد ، الرّجل وإن كتم رأيه لم يخف ذاك في ابنه ، ولا صديقه ، ولا في جليسه» .

قال عمرو بن قيس الملائي : «إذا رأيت الشاب أوّل ما ينشأ مع أهل السنّة والجماعة ؛ فارجه ؛ فإذا رأيته مع أهل البدع ؛ فايأس منه ؛ فإن الشاب على أوّل نشوئه» . المصدر السابق .

وقال ـ أيضاً ـ : «إن الشاب لينشأ ؛ فإن آثر أن يجالس أهل العلم كاد أن يسلم ، وإن مال إلى غيرهم كاد أن يعطب» .

قال ابن عون : «من يجالس أهل البدع أشد علينا من أهل البدع» . «الإبانة» (٢/٢٧٣ رقم ٤٨٦) .

قال يحيى بن سعيد القطان لما قدم سفيان الثوري البصرة ، جعل ينظر إلى أمر الربيع بن صبيح وقَدره عند الناس ، «سأل أي شيء مذهبه؟» ، قالوا : ما مذهبه إلا السنّة ، قال : «من بطانته؟» ، قالوا : أهل القدر ، قال : «هو قدري» . «الإبانة» (٢/٤٥٣ رقم ٤٢١) .

قال ابن بطة : «رحمة الله على سفيان الثوري لقد نطق بالحكمة فصدق ، وقال بعلم فوافق الكتاب والسنّة وما توجبه الحكمة ، ويدركه العيان ، ويعرفه أهل البصيرة ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿**يا أَيُّها**

الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودُّوا ما عَنِتُّم﴾ [آل عمران : ١١٨] .

قال أبو داود السجستاني : قلت لأبي عبدالله أحمد بن حنبل : أرى رجلاً من أهل السنّة مع رجل من أهل البدع ، أترك كلامه؟ ، قال : «لا ، أو تُعْلمه أن الرجل الذي رأيته معه صاحب بدعة ؛ فإن ترك كلامه ؛ فكلمه ، وإلا فألحقه به ؛ قال ابن مسعود : المرء بخدنه» «طبقات الحنابلة» (١٦٠/١ رقم ٢١٦) .

يقول ابن تيميّة ـ رحمه الله ـ : «ومن كان محسناً للظنّ بهم ـ وادعى أنه لم يعرف حالهم ـ عُرِّفَ حالهم ، فإن لم يباينهم ، ويظهر لهم الإنكار ، وإلا أُلْحق بهم ، وجُعل منهم» «مجموع الفتاوى» (١٣٣/٢) .

قال عتبة الغلام : «من لم يكن معنا فهو علينا» «الإبانة» (٤٣٧/٢ رقم ٤٨٧) .

قال ﷺ : «الأرواح جنودٌ مجنّدة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» «صحيح البخاري» (رقم ٣١٥٨) ، و«صحيح مسلم» (رقم ٢٦٣٨) .

قال الفضيل بن عياض ـ عقب هذا الحديث ـ : «فلا يمكن أن يكون صاحب سنّة يمالي صاحب بدعة إلا من النفاق» كتاب «الرد على المبتدعة» لابن البنا (مخطوط) .

قال ابن مسعود : «لو أن مؤمناً دخل مسجداً فيه مئة نفس ليس فيهم إلا مؤمن واحد لجاء حتى يجلس إليه ، ولو أن منافقاً دخل مسجداً فيه ماية ليس فيه إلا منافق واحد لجاء حتى يجلس إليه» .

قال حمّاد بن زيد : قال لي يونس : «يا حمّاد ، إنّي لأرى الشاب على كلّ حالة منكرة ولا آيس من خيره ، حتى أراه يصحب صاحب بدعة ؛ فعندها أعلم أنه قد عطب» .

قال أحمد بن حنبل : «إذا رأيت الشاب أول ما ينشأ مع أهل السنّة والجماعة ؛ فارجه ، وإذا رأيته مع أصحاب البدع ؛ فايئس منه ؛ فإن الشاب على أول نشوئه» «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٧٧/٣) .

قال ضمرة بن ربيعة : عن ابن شوذب الخراساني أنه قال : «إن من نعمة الله على الشاب إذا تنسّك أن يواخي صاحب سنّة يحمله عليها» «الإبانة» (٢٠٥/١ رقم ٤٣) ، وفي «الصغرى» (١٣٣ رقم ٩١) ، واللالكائي (٦٠/١ رقم ٣١) .

عن عبدالله بن شوذب عن أيوب قال : «إن من سعادة الحدث والأعجمي أن يوفقهما الله لعالم من أهل السنّة» اللالكائي (٦٠/١ رقم ٣٠) .

«الحدث» : أي صغير السن .

هذا ما تيسّر بيانه ، والحمد لله وحده .

مدارك النظر في السياسة

بين التطبيقات الشرعية والانفعالات الحماسية

● بقلم الشيخ: أبي الحارث علي بن حسن الحلبي

يُعَدُّ التصنيفُ العلميُّ المنضبطُ ـ اليومَ ـ عُملةً نادرةً في دنيا النشر والكتابِ ؛ فقلَّ أن تجدَ كتاباً متميِّزاً في مادّتهِ ، قويّاً في طرحهِ ، متيناً في صياغتهِ وسَبْكهِ .

وتشتدُّ النُّدْرَةُ ـ أكثرَ وأكثرَ ـ إذا كان هذا الكتابُ يبحثُ في مسائل الدعوةِ إلى الله ـ تعالى ـ ، وعلى منهج السلف الصالحِ ؛ تحريراً وتقريراً ، تأكيداً وتقعيداً .

ذلكم أنَّ كثيراً من الكُتَّاب ينظُرُ إلى أُمور الدعوةِ وشؤونها نظرةً تحملُ معنى (التوسُّط) الذي تلتقي عليهِ الأطراف ؛ ليذوبَ معها الخُلْف والاختلاف !!

فحينئذٍ ؛ أين الحقُّ؟! وأين أهله؟!

ومِن الكتب الّتي متّعْتُ بها ناظري ، وَأَجَلْتُ بها فِكري وخاطِري : كتاب «مدارك النظر في السياسة : بين التطبيقات الشرعية ، والانفعالات الحماسية» ، للأخ الفاضل الشيخ عبدالمالك رمضان الجزائري ـ نفع الله به ، وأجزل مثوبتَه ـ .

وهذا الكتابُ حَسَنٌ عُجَاب ؛ بناه مؤلِّفُهُ ـ وفّقه الله ، وسدّد خُطاه ـ على التأصيل العلميّ السلفيّ ، مقارنةً بما وقع ـ ويقع ـ من تفصيل دعويّ بدعيّ !!

أمّا الأصول ؛ فستةٌ :

أولها : أنَّ (الطريقَ واحدٌ) ؛ لأنّ التفرُّق عنوان الخسارة ، وبابُ الضلالة .

ثانيها : (اتباع الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح) ؛ هو أصلُ الدعوة ، وبابُ الالتزام ؛ لأنَّ الصحابةَ ـ وهم رأسُ السلف ـ «شهدوا التنزيل ، وشاهدوا من هدي الرسول

الكريم ﷺ ما فهموا به التأويلَ السليم» .

ثالثها : أن (نَيْلَ السؤدُد بالعلم) ؛ فلا عِزّ ، ولا شرفَ ، ولا فضلَ ؛ إلا بالعلمِ ؛ الذي هو (قال الله) ، (قال رسول الله) .

رابعها : (صِمَام الأمان من الكفر والهزيمة ؛ باتِّباع الكتاب والسنة) ؛ لا بالعواطف العاصفة ، ولا بالحماسات الفارغة ، ولا بالخُطب الرنّانة ، ولا بالمواعظ المهيِّجة ! وإنّما بالتصفية والتربية ، والتوحيد والتزكية . .

خامسها : أنّ (الردّ على المخالف من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ؛ بالّتي هي أحسنُ ، لِلّتي هي أَقْوَمُ ، بياناً للحقّ ، ونُصْرَةً لأهله ، وردّاً للباطلِ ، وصدّاً لجُنده .

سادسها : (التصفية والتربية) هي الطريقُ (العمليُّ) الوحيد الذي مِن خلاله (واقعيّاً) تصلُحُ الأُمَّة ، وتعودُ إلى مَجْدِها ، وتثوبُ إلى رُشْدِها .

. . . وبعد هذا التأْصيل العِلْميِّ العالي ، والسَّلَفيِّ الغاليّ :

رَبَطَ الأخُ المؤلِّف ـ وفّقه الله ـ بين هذا (التطبيق الشرعي) وبين ما عايَشَه ، ورآه ، ونَظَرَه : من (انفعالات حماسيّة) أَوْدَتْ بالشباب المسلمِ إلى مهاوي الفتن ، ومهالك المِحَن .

ثم ضَرَبَ على ذلك أمثلةً متعدّدة ، بيَّن من خلالها كم جَنَت السياسة المعاصرة (القاصرة) على الدعوة والدعاة ؛ لِخوضهم فيها دون الاسترشاد بهدي أهل العلم ، ودون الإفادةِ من توجيهاتهم ونصائحهم . .

ثم أشار إلى تأثُّر بعض مَن (ترأّس) الدعوةَ في الجزائر بالحِزبيّات ، وآراءِ أهل التكفير ؛ ممّا انعكس على واقع الشباب المسلم ؛ ضلالاً وإضلالاً . .

وكان من ضمن ذلك ذِكْرُ قواعدَ علميّةٍ راسخةٍ ، منها أنّ (**السياسة الشرعيّة لا يخوضها إلا المجتهدون**) ؛ أمّا القاصرون ؛ الذين يُحسِنون القولَ ، ولا يُتْقِنون العلمَ : فما لَهُم ولها؟! وهم ليسوا أهلَها ! ولا أهلاً لها !! ولو دثَّروا أنفسهم بأنفسهم بركام (الجرائد) و(المجلات) و(المذكرات) ، وقاموا الليل على صوت هنا (لندن) ، (مونتوكارلو) .

وقد ذكر الأخُ المؤلِّف ـ من ضمن ما بيَّن وذكر ـ نصائحَ عُلمائنا ومشايخنا لأولئك الخائضين (الحماسيِّين) ، وكيف أنّهم ردُّوها ورفضوها ، ولم يأْبهوا بها ، أو يأنسُوا لها بل حرَّفوها ولووا أعناقها . . . ممّا كان له أسوأُ الأَثَر عليهم ، وعلى دعوتهم ، وعلى شبابهم ، وعلى بلادهم ، بل وعلى عُموم إسلامهم . .

ومِن أحسن ما ذكره الأخ المؤلّف ـ نفع الله به ـ تلكم الأمثلة (المتميِّزة) لِمَا وقع به بعض (الدُّعـاة) من جـهل بالواقع ، تحت اسم ـ وغِطاء ـ (فقه الواقع) !! وبيَّن دلائلَ ذلك كلِّه ، وآثاره ، وأطوارَه !!

وقـد خَـتَم الأخ المؤلّف ـ سـدّده الله ـ كتابه ببيان (الواجبِ اليومَ) على الشباب المسلم ، وأنَّ أهمّ ذلك وأعظمَـهُ : (**إصلاحُ الوقت لإصلاح الحال**) ؛ وأنَّ ذلك يكونَ ـ أعلى مـا يكون ـ بـ (العـبـادة الفُـضلى) القائمة على الإخلاص والاتباع ـ اللذين لا يكونان إلا بالعلم ـ ، وأنّ مبنى ذلك في (الطاعة) ، بل في (الصدق في الطاعة) ؛ حتّى تتحقق الربانيّةُ في القلوب والعقول ؛ لنكون عباداً لله كما يُريد الله .

فكتابٌ كهذا : جديرٌ بأَنْ يستفيد منه الشباب ؛ لتكتحلَ به عيونُهم ، وتستقيمَ من خـلالِه أفكارُهم ، وتنضـبطَ عـبـر أبوابِه عواطفُهُم ؛ وليكون منهم ـ من قبل ومن بعد ـ تمييزٌ متينٌ بين مَن هم أهلٌ للقدوة ، وبين مَن ليسوا كذلك ، ولا قريبين من ذلك .

إنّه كـتـابُ علم وتجـربة ، إنّه كـتـابُ تصفية وتربية ، إنّه كتابُ إرشاد وهِدَاية .

. . . ويكفي أن يعلمَ طلبـــة العلم ، والدعاة ـ سواءً ـ أنَّ شيخينِ من أكابر عُلَماء هذا الزَّمَن : قرَّظاه ، وأثْنَيَا عليه ، وزكّيَاه ، بل استـفـادا منه ، وانتـفـعـا بما فـيـه ، وهمـا : محدث العصر شيخنا محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله ، وفقيه المدينة النبوية : شيخنا عبدالمحسن العباد البدر حفظه الله .

وحسبنا من ذلك قولُ شيخنا العلامة الإمام ، أسد السنّة الهُمام أبي عبدالرحمن محمد ناصر الدين الألباني ـ رحمة الله عليه ـ في مقدّمته : « . . فيه حقائقُ عن بعض الدعاة ، ومناهجهم المخالفة لما كان عليه السلف الصالح . .» .

وقولُه : «واستفدتُ منه أنا ـ شخصيّاً ـ فوائد جمّةً ، حول ثورة الجزائر ، وبعض الرؤوس المنتسبين لها ، والمؤيّدين لها بعواطفهم الجامحة ، والمبالغين في تقويمها ممّن لا يهتمّون بقاعدة التصفية والتربية . .» .

هذا كـلامُ العُلَمـاء ؛ فـعَضَّ عليـه بالنواجِـذِ ، وإيّاك وكـلامَ مَن دونهم ـ ممّن خـالفـهم ـ فـحـذّر من الكتـاب ، وشكّك فيه ، أو طعن بمؤلّفه !!

فكلُّ ذلك نَفَـخَـاتٌ خلفـيّـةٌ باطلة ، ونَفَحاتٌ حزبيّةٌ عاطلةٌ ، لم تُبْنَ على علم ، ولم تُؤَسَّسْ على حلم .

واللهُ يقولُ الحقَّ ، وهو يهدي السبيل .

أهمية الصدق، وضرورته؛ لقيام الدنيا والدين

● بقلم: فضيلة الشيخ د. أ. ربيع بن هادي المدخلي

إن خلق الصدق من أعظم مقومات الدين والدنيا؛ فلا تصلح دنيا، ولا يقوم دين على الكذب والخيانة والغش.

والصدق والتصديق هو الرباط الوثيق بين الرسل ومن آمن بهم، قال تعالى: ﴿**والذي جاء بالصدق وصدَّق به أولئك هم المتقون. لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين**﴾.

وقال في الكذب والتكذيب: ﴿**فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين**﴾.

ولمكانة الصدق والتصديق بالحق عند الله، وفي الإسلام، ولدى العقلاء، وذوي الفطر السليمة، وآثارهما الطيبة، ولخطورة الكذب والتكذيب بالحق؛ أحببت أن أزجي هذا المقال المستمد من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ وسيرته، ومن سيرة وواقع بعض الصادقين المصدقين من أصحاب رسول الله، والله أسأل أن يعينني، ويوفقني للنهوض بكل ما أستطيع من إسداء للنصح والبيان لإخواني المسلمين وأسأله أن يجعلنا جميعاً من الصادقين الحريصين على التمسك به، والثبات عليه، وأن يجعلنا جميعاً من المحبين للحق، والمتحرين لاتباعه والمصدقين به.

ولعظمة الصدق ومكانته عند الله وعند المسلمين وعقلاء البشر، وصف الله نفسه بالصدق؛ فقال: ﴿**قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**﴾.

فهذا ثناء من الله على نفسه بهذا الوصف العظيم؛ فهو صادق في أخباره كلها وفي كلامه كله، وفي تشريعاته، وفيما قصه عن الأنبياء وأممهم، وفيما قصه عن بني إسرائيل أنبيائهم ومؤمنيهم وفاسقيهم ومن كفر منهم، وعن تحريفهم لكتاب الله:

التوراة ، والإنجيل ، واتخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله .

وقال تعالى : ﴿**ومن أصدق من الله حديثاً**﴾ .

وقال تعالى : ﴿**وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً**﴾ .

وقال تعالى : ﴿**وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون. وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين. ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين**﴾ .

وقال تعالى : ﴿**ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون**﴾ .

هكذا وصف الله نفسه بهذا الوصف العظيم ، الصدق في الأقوال ، والصدق في الأفعال ، والصدق في الوعد ، والصدق في الوعيد ، والصدق في الأخبار عن أنبيائه وأوليائه المؤمنين ، والصدق في الأخبار عن أعدائه الكافرين .

ولقد وصف الله أنبياءه بالصدق ، وأيّدهم بالمعجزات والآيات العظيمة برهنة على كمال صدقهم ، ودحضاً لافتراءات وتكذيب أعدائهم .

ومن أعظم ما أيدهم به إهلاك أعدائهم بالطوفان ، وبعضهم بالريح الصَرْصَر ، وبعضهم بالصيحة ، والرجفة ، وبعضهم بالخسف ، وبعضهم بالغرق ، مع إنجاء الأنبياء وأتباعهم ؛ فكل هذا من رب العالمين شهادة بصدق أنبيائه ، وأنهم رسله حقاً ، وإهانة لأعدائه وأعدائهم .

وممن وصفهم في القرآن بهذا الوصف : إبراهيم ، وإسماعيل ، وإدريس - عليهم الصلاة والسلام - .

قال تعالى : ﴿**واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً**﴾ .

وقال تعالى : ﴿**واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً**﴾ .

وقال تعالى : ﴿**واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً**﴾ .

فالوصف بالصديقيّة بيان لتمكنهم من هذا الوصف وهو الصدق ، وأن أقوالهم وأفعالهم ووعودهم وعهودهم قائمة على الصدق .

وكل آية في القرآن الكريم المعجز الذي تحدى به الجنّ والإنس على أن يأتوا بسورة من مثله ؛ فعجزوا عن ذلك أعظم برهان على صدق محمد رسول الله ﷺ ، وأنه رسول الله حقاً ، وخاتم النبيين ، وشهادة الله له بأنه خاتم النبيين معجزة عظمى ودلالة كبرى على صدقه - صلوات الله وسلامه عليه - ؛ إذ ما ادعى النبوة أحد بعده إلا وفضحه الله وأخزاه ، وكشف عواره ، وكذبه .

بل ما كذب عليه أحد في قول نسبه إلى

رسالته إلا وفضحه الله ، وأخزاه ؛ ببيان أتباع رسالته الصادقين من محدثين وغيرهم .

قال تعالى ـ في الثناء عليه وعلى ما جاء به من الحق والصدق ـ :

﴿بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾ .

فهذه أعظم منزلة أوتيها عبدالله ورسوله محمد ﷺ .

وقد وصف الله عباده المؤمنين الذين صدقوا في إيمانهم وأعمالهم وجهادهم وعهودهم :

﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من ءامن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وءاتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وءاتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ .

وقال تعالى : **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾** .

وقال تعالى : **﴿إنما المؤمنون الذين ءامنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾** .

وقال تعالى ـ في مدح فقراء المهاجرين وكل أصحاب محمد صادقون لا فرق بين مهاجريّ وأنصاري ـ :

﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون﴾ .

لقد زكى الله أصحاب محمد ﷺ ، وأثنى عليهم كثيراً في محكم كتابه ، وأثنى عليهم رسوله ﷺ عاطر الثناء في أحاديث كثيرة .

ومن أبرز وأجلى صفاتهم التي وصفوا بها الصدق الذي لا يقوم دين ولا تستقيم دنيا إلا به ؛ فنقل إلينا هؤلاء الصادقون ووراثهم بكل صدق وأمانة كتاب الله المتواتر ، وسنة رسوله : متواترها وآحادها الصحيحة الثابتة بما في ذلك سيرة رسول الله ﷺ ، وجهاده ، وغزواته .

والكتب الصحاح والمصنفات والجوامع والمعاجم وكتب العقائد وغيرها تزخر بهذه النقول ، قد ميّز فيها أئمة الجرح والتعديل الصحيح منها من السقيم حتى تكون الأمّة على صراط مستقيم ، ومنهج قويم ، وحياة واعية راشدة .

ونقلوا لنا سير الصحابة الكرام ، ومناقبهم ومحاسنهم ؛ التي برزوا فيها على سائر أمم الأنبياء ؛ فكانوا بها خير أمة أخرجت للناس ، وكتب فضائل الصحابة ، ومناقبهم ، وسائر دواوين السنة تزخر بذلك .

وقد مرّ بنا ثناء الله العام عليهم بصفات جليلة ومنها الصدق ، ومقالي هذا لا يتسع لذكر الأخبار الصحيحة بوقائع صدقهم غير أني سأضرب مثلاً بثلاثة منهم تجمعهم حادثة واحدة ، وأبرز هؤلاء الثلاثة ذلكم الصحابي الجليل كعب بن مالك ، ذلكم الرجل الذي نجاه الله من النار ، والنفاق ، ومن سخط الله ، وسخط رسوله بالصدق ، وقصته شهيرة ، وحديثه مشهور وطويل لا يتسع المقام لسرده هنا ، لكني سأختار منه مقاطع تدل على منزلة هذا الصحابي وإخوانه في هذه الواقعة ، ويأخذ المسلم منها العبرة والأسوة بهؤلاء الصادقين .

١- «عن عبدالله بن كعب قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، قال كعب ابن مالك : لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك ، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحداً تخلف عنه ، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها ، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً ، واستقبل عدواً كثيراً ؛ فجلا للمسلمين أمرهم ؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم ؛ فأخبرهم بوجههم الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ ؛ يريد : بذلك الديوان ، قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب يظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصعر ؛ فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئاً ، وأقول في نفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً ، والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً ، ثم غدوت ؛ فرجعت ، ولم أقض شيئاً ؛ فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ؛ فهممت أن أرتحل ؛ فأدركهم فيا ليتني فعلت ، ثم لم يقدر ذلك لي ؛ فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموضاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء» .

ففي هذا المقطع إشادة ببيعة العقبة ومنزلتها في نفسه ؛ لأنها بما فيها من معان كبيرة تمثل القاعدة المكينة التي قامت عليها هجرة أصحاب رسول الله ﷺ إلى المدينة النبوية ، وقام عليها نصرة الأنصار ، وعليها قامت دولة الإسلام ، وعلى أساسها قام الجهاد وقوة الإسلام والمسلمين ، ومنها وعنها انبثقت الغزوات والسرايا ثم القضاء على الردّة وانطلاق جيوش الإسلام إلى العالم ؛ لتفتح القلوب بنور الإيمان والإسلام وتخرجهم من الظلمات إلى النور ، فمن هنا أدرك هذا الصحابي الجليل مكانة بيعة العقبة فكان لا يرضى به بديلاً ؛ فهو كما قال : «وما أحب أن لي به مشهد بدر» .

تحدث عما اكتنف تخلفه عن غزوة تبوك بشجاعة الصادقين ، بأسلوب واضح مشرق يفيض بالصدق ، من قلب امتلأ بالإيمان ، وروح ومشاعر تتدفق بالنزاهة والصدق الذي لا يعرف مثله لتائب في مثل ذلك الموقف الرهيب ، الذي ارتكس فيه الجبناء المنافقون ؛ فلجأوا إلى الكذب والتمويه بانتحال الأعذار الكاذبة التي سرعان ما فضحهم الله وأخزاهم وأحلهم به دار البوار .

(١) لقد صرّح بأنّ تخلفه لم يكن ناشئاً عن فقر وعسر ، ولا عن عجز وضعف ، فقد كان يشارك فيما سبق غزوة تبوك من غزوات ، وهو في حال دون حاله في هذه الغزوة ، قال :

«وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك : أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة» .

(٢) صرح بالأسباب التي نالت من عزيمته في الجهاد ، وهي : الحر الشديد ، والسفر البعيد ، والمفاوز العريضة المهلكة بين المدينة وتبوك ، والعدد الكثير من روم وعرب يشايعون الروم .

وذكر أن رسول الله ﷺ جلا أمرهم ؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم .

(٣) وصرح بما لعله أهم أسباب تخلفه وهو طيب الثمار والظلال ، ثم قال مصرّحاً بما قد يسعه إخفاؤه ولكن نفسه الصادقة أبت إلا أن يصدع به : «فأنا إليه أصعر» ؛ أي : أن نفسه مالت إليه ، وهذه منزلة عظيمة في الصدق قل جداً من يرقى إليها .

(٤) وذكر منازعة نفسه وتردده بين اللحاق بركب رسول الله ﷺ وإخوانه المجاهدين وبين قعوده تحت الظلال الوارفة والثمار الطيبة .

(٥) وذكر ما كان يصيبه في هذا التخلف من آلام الحسرة والحزن ؛ بسبب أنه لا يرى له أسوة في التخلف إلا رجلاً مغموصاً عليه في

النفاق ، أو رجلاً ممن عذره الله من الضعفاء ، وهذا من أدلة حياة قلبه وصدق إيمانه .

٢- «فقال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سخطه غداً ، وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل لي : إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً ، زاح عني الباطل ، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً ، فأجمعت صدقه ، وصبح رسول الله ﷺ قادماً وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ؛ فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، حتى جئت فلما سلمت تَبَسَّم تَبَسُّم المغضب ، ثم قال : «تعال» ! فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : «ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك»؟ قال : قلت : يا رسول الله ! إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً ، ولكني - والله - لقد حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى الله ، والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . قال رسول الله ﷺ : «أما هذا ؛ فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك ، فقمت» .

وفي هذا المقطع يذكر لنا وضعه الجديد حيث قفل رسول الله ﷺ وقد ظفروا بالعزّة والنصر والأجر ، فماذا استفاد من هذا التخلف ولو كان من أسبابه طيب الظلال والثمار ، ومن هم أسوته سوى المغموص عليهم في النفاق والضعفاء والمعذورين .

فيعتصر قلبه الحي من قسوة الألم والأسى .

وفي الوقت نفسه يذكره الشيطان ، ويملي عليه أنواعاً من الكذب ، لكن ظلمات الكذب والباطل قد انزاحت عنه - بفضل الله عليه وحسن رعايته له - بسبب صدق إيمانه وإخلاصه لله رب العالمين ، فوفقه لأعظم أسباب النجاة - بعد الإيمان - وهو الصدق ، ولا سيما عند الأخطار والأحداث المدلهمة .

قال : «فلما قيل لي : إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عني الباطل ، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً ، فأجمعت صدقه ، وصبح رسول الله ﷺ قادماً» .

وذكر تلك السنَّة العظيمة التي تكاد تنسى أو نسيت عند كثير من المسلمين ، ألا وهي صلاة ركعتين في المسجد عند قدوم المسلم من سفر .

وذكر موقف المعذرين - أي المنافقين - :

أنه الكذب والتمويه الباطل مؤكدين كذبهم بالحلف فما يسع رسول الله إلا أن يقبل منهم ، ويكل سرائرهم إلى الله علام الغيوب الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، لكن كعباً ـ رضي الله عنه ـ بفقهه وعقله أدرك أن الكذب على رسول الله ـ ولو أكد بالأيمان المغلظة ـ لن ينجيه من سخط الله ثم من سخط رسوله ، أدرك ذلك ببصيرته النيّرة وعقله الثاقب بعد توفيق الله له ، فأبى إلا أن يجهر بالحقيقة الناصعة .

٣- قال : «فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا ، قال : ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل منا ؛ قد ضاقت علي نفسي ، وضاقت علي الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ! أبشر ، قال : فخررتُ ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج ، قال : فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، فذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض رجل إلي فرساً ، وسعى ساع من أسلم قبلي ، وأوفى الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني ، فنزعت له ثوبي ، فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرتُ ثوبين فلبستُهما ، فانطلقت أتأم رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة ، ويقولون : لتهنئك توبة الله عليك ، حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس ، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ـ قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة ـ ، قال كعب : فلما سلَّمتُ على رسول الله ﷺ ، قال ـ وهو يبرق وجهه من السرور ـ ويقول : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ، قال : فقلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ فقال : لا بل من عند الله ، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه كأن وجهه قطعة قمر ، قال : وكنا نعرف ذلك ، قال : فلما جلست بين يديه ، قلت : يا رسول الله ! إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : أمسك بعض مالك ؛ فهو خير لك قال : فقلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر» .

لقد جاء إلى رسول الله ﷺ لا يكذبه في العذر ، ولكن ليقول الحقيقة بملئ فيه ؛ لأنه قد زاح عنه الباطل ، واستقر الحق في أعماق نفسه .

فقال رسول الله ﷺ : ما خلفك ألم تكن

قد ابتعت ظهرك؟ أي : قد اشتريت راحلة الجهاد ، وأعددت العدة لذلك .

فقال كعب : يا رسول الله ! إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أُعطيتُ جدلاً ، ولكني ـ والله ـ لقد علمت لئن حدثتُك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى الله ، والله ما كان لي عذر ، والله ماكنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . قال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك .

واعتذر إخوانه مرارة بن الربيع وهلال بن أميّة بمثل عذره الصادق ، وقال لهم رسول الله ﷺ مثل ما قال لكعب .

وأمر رسول الله ﷺ المجتمع المسلم بمقاطعتهم وهجرانهم ، فنفذوا أمر رسول الله ﷺ ، بدقّة بما فيهم أقرب الأقربين إليهم ، طاعة لله ولرسوله ﷺ ، ويستلبث الوحي وتستمر المقاطعة ، ويتمادى الابتلاء والاختبار الصعب لمدة خمسين يوماً .

وتترامى الأنباء إلى ملك غسان النصراني ، فيجد ـ في ظنّه ـ فرصة إلى استمالة كعب ، ودعوته إلى اللحاق به ؛ ليكرمه في زعمه ويواسيه ؛ فيأبى إيمان كعب بالله ورسوله ، وتأبى نفسه الأبية من الاستجابة لهذه الحيلة الشيطانية ، ويدرك بأن هذا أيضاً من الابتلاء فيسجر برسالة هذا الكافر التنور كما قال ـ رضي الله عنه ـ وجاءهم الفرج صباح خمسين ليلة بتوبة الله عليهم ، وهم كما قال كعب ـ رضي الله عنه ـ على الحال التي ذكر الله تعالى : قد ضاقت علي نفسي ، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت ، وامتلأ أصحاب محمد ﷺ بشرى وسروراً بما أفاض الله على إخوانهم من توبة الله عليهم ورضى الله ورسوله عنهم وتسابق المبشرون ، منهم من يمشي على رجليه فيستبطئ فيعلو جبل سلع ويرفع صوته مدوياً فيسبق صوته راكب الفرس المنافس له ، الحريص على سبقه فيذهب كعب إلى رسول الله ﷺ ، وفي طريقه يستقبله أصحاب رسول الله فوجاً فوجاً يهنئونه بتوبة الله عليه .

ويجد رسول الله ﷺ ووجهه كالقمر تبرق أساريره من السرور ، فيقول له : أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمّك .

وكيف لا يكون ذلك وقد أنقذه الله بالصدق من هلاكٍ ماحقٍ وقع في أتونه من لاذوا بالكذب والأيمان الفاجرة وقلب الحقائق ، الله أكبر ! إن هذا اليوم خير له من بيعته على الإسلام والنصرة في بيعة العقبة ، تلك البيعة التي يراها أحب إليه من المشاركة في وقعة بدر .

لشدة فرحه بهذه التوبة وشعوره بهذه التوبة وشعوره العميق بهذه النعمة أكّد ذلك بموقف الشاكر لنعمة الله عليه فقال :

«يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي ؛ صدقة إلى الله وإلى رسوله» .

ذلك المال المغري الذي كان من أسباب تخلفه عن الجهاد ، هذا دليل آخر منه على صدق توبته وجدّه في ذلك .

فيقول له رسول الله الرؤوف الرحيم : «أمسك عليك بعض مالك» فماذا صنع؟ لقد انخلع من ماله بالمدينة الذي حبسه عن الغزو في سبيل الله ، وأبقى سهمه بخيبر ، ذلك المال البعيد الذي لعله لا دخل له في حبسه .

ويدلي بالسبب القوي في نجاته ؛ بل هو في نظره السبب الوحيد في إنقاذه من الهلاك الماحق فقال : «يا رسول الله إنما أنجاني بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدِّث إلا صدقاً ما بقيتُ» .

ويوفقه الله للوفاء بما وعد به رسول الله ﷺ ، وبما يراه هو من أركان توبته ، قال : «فوالله ! ما علمتُ أنّ أحداً من المسلمين أبلاه الله أن أنعم عليه في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به ، والله ! ما تعمدت كذبةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا» .

ما أروع الصِّدقَ ! وما أنبل الصادقين ! وبُعداً وسحقاً للكاذبين ، في أي زمان ومكان ، كيف لا؟ وهو من أعظم دعائم الكفر والنفاق ، وأضعف أحواله أن يكون من ركائز النفاق ، عياذاً بالله منه ، ومن كل ما يسخط الله تبارك وتعالى ، ثم يقول متحدثاً عن هذه النعمة التي منّ الله بها عليه .

٤- «قال : وقلت : يا رسول الله ! إن الله إنما أنجاني بالصدق ، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ، قال : فوالله ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به ، والله ! ما تعمدتُ كذبةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي . قال : فأنزل الله عز وجل : ﴿**وعلى الثلاثة الذين خلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم**﴾ حتى بلغ : ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾ قال كعب : والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، وقال الله : ﴿**جزاء بما كانوا يكسبون. يحلفون لكم لترضوا**

عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾» .

فهذه عاقبة الأفاكين ، ولو كان إفكهم تملقاً واعتذاراً ، ولم يغن عنهم استغفار رسول الله ﷺ شيئاً في حياتهم ولا بعد مماتهم ، قال تعالى : ﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾** ، ﴿**فما تنفعهم شفاعة الشافعين﴾** .

وفي هذا عبرة عظيمة للذين لا يزكون أنفسهم بالتوحيد والإيمان والصدق والأعمال الصالحة ، وقد يكون في هؤلاء الكذابين المخادعين من يعتقد أن توصله بالكذب والخداع إلى تسامح الرسول عنه والاستغفار له ينجي من بطش الله وإهانة الله له في الدنيا والآخرة ، فخيب الله آمالهم وأخزاهم في الدنيا والآخرة .

ولم يغن عنهم استغفار رسول الله ﷺ شيئاً .

هذه حقيقة وضحها القرآن في سورة التوبة وغيرها ، وأكدها رسول الله بقوله لقريش بطناً بطناً ولأفراد أسرته : «اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً» ، فليحذر الكذابون ـ في أي زمان ومكان ـ في إيمانهم وعقائدهم وأقوالهم وشهاداتهم أن يفضي بهم هذا الكذب إلى هوّة الهلاك التي تردى فيها هؤلاء الكذابون .

وفيه عبرة وبشرى للصادقين في إيمانهم وإسلامهم وأعمالهم الصالحة وأقوالهم وشهاداتهم بالنجاة من الهلاك كما نجى وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ بالصدق في ظرف يدعو فيه الحال ضعاف الإيمان وضعفاء النفوس إلى الكذب ، قال تعالى : ﴿**هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾** .

من ثمار الصدق

وفي «الصحيحين» عن طلحة بن عبيدالله قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ، ثائر الرأس ، نسمع دويَّ صوته ولا نفقه ما يقول ، حتى دنا من رسول الله ﷺ ، فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : «خمس صلوات في اليوم والليلة ، فقال : هل علي غيرهن؟ قال : لا ، إلا أن تطوع ، وصيام شهر رمضان ، فقال : هل علي غيره؟ فقال : لا ، إلا أن تطوع ، وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة فقال : هل علي غيرها؟ قال : لا ، إلا أن تطوع . قال : فأدبر الرجل ـ وهو يقول ـ : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه ، فقال رسول الله ﷺ : أفلح إن صدق» .

وفي «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك قال : نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء ، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل ؛ فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية ، فقال : يا محمد ! أتانا رسولُك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟ قال : صدق ، قال : فمن خلق السماء؟ قال : الله قال : فمن خلق الأرض؟ قال : الله قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال : الله . قال : فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك؟ قال : نعم . قال : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا . قال : صدق . قال : فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم . قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا . قال : صدق . قال : فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم . قال : وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا . قال : صدق . قال : فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم . قال : وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلاً . قال : صدق . قال : ثم ولى . قال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن . فقال النبي ﷺ : «لئن صدق ليدخلن الجنة» .

هذان سائلان عاقلان ، أنعم الله عليهما بنعمة العقل والفطنة وحسن السؤال ، ولا سيما الآخر منهما ـ وقد قيل إنه ضمام بن ثعلبة الهذلي ـ ، فالأول منهما سأل رسول الله عن شرائع الإسلام ، فأجابه الرسول بما فرضه الله على العباد من أركان هذا الدين بعد الشهادتين ، لأن السائل فيما بيدو كان مسلماً ، فأجابه بأن الإسلام هذه المكتوبات .

والسائل يقر بذلك ويلتزمه ؛ لأنه يريد أن يعلم : هل هناك شيء يجب عليه زائد عما ذكره من هذه الأركان ، والرسول ﷺ يقول له لا إلا أن تطوع ، فلما فرَّق له رسول الله بين الواجبات والتطوعات ؛ أقسم بالله أنه لا يزيد على تلك الواجبات ولا ينقص منهن ، فأجابه رسول الله ﷺ ـ مبشراً له وللأمة بالجزاء العظيم لمن يقوم بهذه الواجبات حق القيام ـ : «أفلح إن صدق» ، أي : طابق فعله قوله ، وذلك هو الصدق ، ففلاحه مترتب على صدقه في المقال والفعال ، وأنعم بذلك .

وأما السائل الثاني ؛ فكان سؤاله أعمق وأبعد مدى من الأول ، قال صاحب «التحرير» ـ وهو محمد بن إسماعيل الأصفهاني السلفي ـ :

«هذا من حسن سؤال هذا الرجل وملاحة سياقته وترتيبه، فإنه سأله أولاً متأكداً من صدق الرسول الذي أرسله رسول الله ﷺ لدعوتهم إلى الإسلام، هل هو صادق أنك مرسل من الله، فقال

رسول الله ﷺ: صدق، ثم سأله عن خالق السماء والأرض ومن نصب هذه الجبال لأنه كسائر العرب كانوا يؤمنون بتوحيد الربوبية .

فأجابه رسول الله ﷺ بقوله : الله ، الله ، الله ، في كل ذلك .

ثم استثبت من كل ما بلغه رسولُ رسولِ الله ﷺ إليهم من شرائع الإسلام : الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والرسول يقول : صدق صدق . . إلخ .

فلما انتهى رسول الله ﷺ من الإجابة عن أسئلته ، قال الرجل : والذي بعثك بالحق ! لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن شيئاً ، فقال رسول الله ﷺ : «**لئن صدق ليدخلن الجنَّة**» .

فيا لها من ثمرة عظيمة للصدق ، الصدق في الاعتقاد ، والصدق في القول ، والصدق في التطبيق بالعمل المشروع المتلقى عن الله ورسوله .

فهذه بعض ثمار الصدق يهدي في الحياة الدنيا إلى البر ـ وهو الجامع لكل خصال الخير ـ والفوز بالمنازل العالية عند الله تبارك وتعالى ، فالصادقون خالدون في جنات تجري من تحتها الأنهار قد نالوا أعظم مطلوب ، وهو فوق هذه المنازل ، ألا وهو رضى الله تعالى عنهم .

ومن ثماره : الهداية إلى البر ثم إلى الجنة : قال رسول الله ﷺ : «إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً» .

ومن ثماره : الفوز برضى الله ، ثم الفوز بجنات تجري من تحتها الأنهار ويظهر ويتجلى فيه نفعه ، قال تعالى : ﴿**هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم**﴾ .

وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة ! فيقولون : لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب ! وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحلّ عليكم رضواني؛ فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

فهنيئاً للصادقين ، هذا الفوز العظيم ، والنعيم المقيم ، والرضى الأبدي ، والخلود السرمدي .

جعلنا الله منهم بمنه وفضله ورحمته ، إنه رؤوف ، رحيم ، جواد ، كريم ، وصلى الله على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

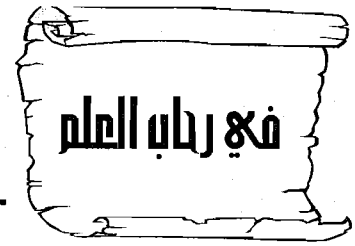

العلم والتعلّم وفضل العلماء

● بقلم: فضيلة الشيخ د. صالح بن غانم السدلان

لا ريب أن الدين الاسلامي هو الذي حفَّز العرب ـ ومعهم من دخل في الاسلام من الأمم الأخرى ـ إلى التعمق في العلم والتَّبحُّر فيه ، بل وتحمل المشاق والصعاب في سبيل تحصيله وجمعه ، ثم في وجوب إشاعته بين الناس والنهي عن حبسه في صدور العلماء ؛ فلم تعرف البشرية ديناً مثل الاسلام عني بالعلم أبلغ العناية وأتمها ، دعوةً إليه ، وترغيباً فيه ، وتعظيماً لقدره ، وتنويهاً بأهله ، وحثّاً على طلبه ، وتعلمه وتعليمه بياناً لآدابه ، وتوضيحاً لآثاره ، وترهيباً من القعود عنه ، أو الازورار عن أصحابه ، أو المخالفة لهدايته ، أو الازدراء بأهله .

وقد حض الاسلام على العلم والتعلم[1] ، وحث على طلب المعرفة ، والآيات والأحاديث والآثار في ذلك كثيرة .

فمن الآيات الدالّة على ذلك : قال الله تعالى : ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾ .

وقال تعالى : ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب**﴾ .

وقال تعالى : ﴿**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط**﴾ .

وقال تعالى : ﴿**إنما يخشى الله من**

(١) انظر في هذا الموضوع : «مفتاح السعادة» (ج١ ص٥ ـ ٦) ، و«من ميسرات البحث العلمي عند المسلمين» (٨٦ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ، ١٣٥) ، و«شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم» ، (٢٨-٢٩-٣٥-٣٨-٣٩) ، و«مفتاح دار السعادة» (ص١٤٤ ـ ١٤٧) ، و«أبجد العلوم» (ج١ ، ص٩١) .

عباده العلماء﴾ .

وقال تعالى : **﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾** .

وقال تعالى : **﴿قال الذي عنده علم الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾** .

وقال تعالى : **﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾** .

وقال تعالى : **﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾** .

وقال تعالى : **﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾** .

والكتاب المبين يثير طاقة العقل الإنساني ، ويوجهه إلى المشاهدة والملاحظة والإدراك لشتى ظواهر الكون الواضحة لكل ذي عينين ، ونواميسه المعجزة التي سبر أغوارها أهل العلم بالبحث والتدبر ، والآيات القرآنية في ذلك كثيرة على نحو ملفت للنظر في هذا القرآن العظيم المعجز ، والإنسان مطالب بأن يتفكر في كل ذلك ، وبأن يتبصر في حكم الخالق العظيم ، لا أن يأكل ويستمتع بهذه الخيرات فحسب ، وإلا تحول إلى نوع من الأنعام .

ومن الأحاديث الشريفة الواردة في فضل العلم والتعلم وبيان منزلة العلماء ما يلي :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[1] .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة**»[2] .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً من الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»[3] .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه والدارمي .

سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله عز وجل أوحى إليَّ : أنه من سلك مسلكاً في طلب العلم سهلت له طريق الجنة ، وفضل في علم خير من فضل في عبادة ، وملاك الدين الورع»[1] .

والأخبار والآثار الواردة في شرف العلم ، وفضل العالم والمعلم والمتعلم وطالب العلم كثيرة جداً ، والمراد بالعلم هنا علم الدين والشرع المبين ، وهو علم الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، وليس المراد به العلوم المستحدثة التي عني الناس بها في هذا الزمان ، وخاضوا فيها خوضاً منعهم عن النظر في علوم الإيمان ، وأشغلهم عن الاشتغال بمراد الله تعالى ورسوله سيد الإنس والجان ؛ حتى صار علم القرآن مهجوراً ، وعلم الحديث مغموراً ، وظهر صنائع أقوام الكفر والإلحاد ، وسميت بالعلوم والفنون والكمال المستجاد ، وهي كل يوم في ازدياد ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون .

قد احتل العلماء والفقهاء مكانة عظمى في المجتمع المسلم في صدر الاسلام ، ذلك للمعاني الرفيعة التي كانوا يمثلونها ، والتي رسخها الدين الاسلامي العظيم في نفوس أبنائه ، مما انعكس على سلوكياتهم في تعاملهم مع هؤلاء العلماء والفقهاء ، فقد تكاثرت أحاديث النبي ﷺ وتتابعت بعد آيات القرآن الكريم ، في بيان فضل العلم ومنزلة العلماء ، ورفعتهم مكاناً علياً لا يسعى إليه على قدم ، ولا يطار له على جناح إلا بواسطة العلم .

ولا ريب أن أَوْلَى العلوم بذلك هو علم الدين ، الذي به يعرف الإنسان وربه ، ويهتدي إلى غايته ، ويكتشف طريقه ، ويعلم ما له وما عليه ، ثم بعد ذلك كل علم يكشف عن حقيقة تهدي الناس إلى الحق ، أو تقربهم من خير ، أو تحقق لهم مصلحة ، أو تدرأ عنهم مفسدة .

إن أول ما نزل من آيات القرآن الكريم قول الله لنبيه ﷺ : ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق** . . . ﴾ الآيات .

وهذه أول صيحة تسمو بقدر القلم ، وتنوه بقيمة العلم ، وتعلن الحرب على الأمية الغافلة ، وتجعل اللبنة الأولى في بناء الجيل المسلم أن يقرأ ويتعلم .

لذلك أعزَّ الله العلماء وأثرهم بكرامته وفضله ، قال رسول الله ﷺ : «يقول الله عز وجل للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه للفصل بين الخلائق : إني لم أجعل علمي

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» .

وحلمي فيكم ؛ إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالي» الطبراني .

قال الحافظ المنذري : «انظر إلى قوله سبحانه : «علمي وحلمي» ، وأَمْعِن النظر فيه ؛ يتضح لك من إضافته إليها عز وجل ؛ أنه ليس المراد به علم أكثر أهل زماننا المجرد عن العمل به والإخلاص فيه ؛ فهو علم لم يستبد به النزق ، ولم تسخره الشهوات» .

إن التعلم والتعليم روح الاسلام لا بقاء لجوهره ولا كفالة لمستقبله إلا بهما ، والناس في حكم الاسلام أحد رجلين : إما متعلم يطلب الرشد ، وإما عالم يطلب المزيد ، وليس بعد ذلك من يؤبه له .

وتلك نصوص قاطعة في أن المسلمين يجب أن يتعلموا ؛ وإلا خانوا الأمانة التي حملوها ، وجهلوا الناس عمداً بها ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا»[1] .

طرف من أقوال السلف، وعلماء هذه الأمة في بيان فضل العلم، وشرفه:

قال بعض السلف : «كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح به إذا نسب إليه ، وكفى بالجهل ذماً أن يتبرأ من هو فيه» ،

وقال بعضهم أيضاً : «خير المواهب العلم ، وشر المصايب الجهل ، والعلماء في الأرض مثل النجوم في السماء إذا بدت للناس اهتدوا ، وإذا غابت عنهم تحيروا» .

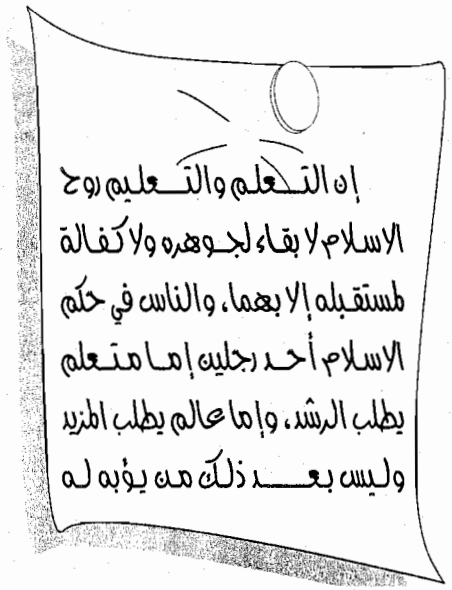

وقال سفيان بن عيينة : «أرفع الناس عند الله منزلة : من كان بين الله وبين عباده ، وهم : الأنبياء والعلماء» ، وقال أيضاً : «لم يعط أحد في الدنيا شيئاً أفضل من النبوة ، وما بعد النبوة شيئاً أفضل من العلم والفقه ، ومن أراد النظر إلى مجالس الأنبياء ؛ فلينظر إلى مجالس العلماء» .

وقال الشافعي رحمه الله : «طلب العلم

(١) صحيح مسلم .

أفضل من النافلة» ، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : «من رأى أن الغـدُوَّ لطلب العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله . ﴿**ومـن أحـسن قـولاً ممن دعى إلى الله وعـمل صـالحـاً وقـال إنني من المسلمين**﴾ [فصلت : ٣٣]» . وقال أيضاً : «العالم والمتعلم شريكان في الخير ، وسائر الناس هَمَجٌ لا خير فـيـهم» ، وقـال : «كن عـالماً أو مـتـعلمـاً أو مستعلماً ، ولا تكن الرابعة فتهلك» ، وقال أبو الأسـود : «ليس شـيئـاً أعز من العلم ، الملوك حكام على الناس ، والعلمـاء حكام على الملوك» ، وقـال ابن عبـاس رضي الله عنهـما : «خُيِّرَ سليـمان بن داود عليـهـما السلام بين العلم والمال والملك فاختـار العلم فـأعطي المال والملك معه» .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : «عليكم بالعلم قـبل أن يرفع ، ورفعـه هلاك العلمـاء ، فـوالذي نفـسي بيـده ليـودّن رجالاً قـتلوا في سـبيـل الله شـهـداء أن يبـعـثـهم الله علمـاء لما يرون من كـرامـتـهم ، وإن أحـداً لم يولد عـالماً ، وإنما العلم بالتعلم» .

لكل ما سبق - وهناك كثير غيره - نجد أن هذا المجـتـمع المسلم الواعي في صـدر الإسلام وعلى مر الأزمـان قـد وضع العلمـاء في المكانة اللائقـة بهم ؛ فكرّمـهم وأعـزهم وأجاب جـميع مطالبـهم ، ومـا كـانوا يطلبون أكـثر مما يعـينهم على أداء رسـالتـهم الخـالدة ؛ فلم تكن الدنيـا مـبلغ همّـهم ، ولا منتـهى علمـهم ، ولم تشـغلهم كـثـيـراً مما مُكِّن لـهم وفرض احترامهم على الجميع ؛ لأنهم اعتزوا بالله أولاً ثم بعلمهم ثانياً . فيا لله ! من عصر تُقلب فيه الحقائق ، ويتوارى فيه العلماء مِن واجـهـة المجـتـمع في كـثـيـر من البلدان الإسلامية ، وتخفّ وطئتهم في التأثير في حـيـاة الأمـة ، ومـا كـان ذلك إلا أن الحكام والمسئولين لم يعـرفوا لـهـؤلاء أقدارهم ، ولم ينزلوهم منازلهم ؛ فإلى الله المشتكى !!

قال يحيى بن معاذ الرازي :

لا يفلح من شممتَ رائحة الرياسة منه

كوني عتبة بيتك

● بقلم: أكرم بن محمد زيادة

﴿وجاهدوا في الله حقَّ جهادِهِ هو اجْتَباكم وما جعل عليْكم في الدِّين من حرجٍ مِلَّة أبيكم إبراهيم هو سَمَّاكم المسلمين من قبل﴾ [الحج: ٧٨].

﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع مِلة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسنٌ واتبع مِلة إبراهيم حنيفاً واتخذَ الله إبراهيم خليلاً﴾ [النساء: ١٢٥].

مما لا شكَّ فيه أن مِلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام هي أحسنُ المِللِ التي اختارها الله لعباده المُصْطَفين الأخيار من النبيين من ذرِّيته عليه السلام، وأَمَرَ سيد الخلق محمداً ﷺ باتباعها.

ومِلة إبراهيم لم تنْحَصِر في الاعتقاد والتعبُّدِ والتَنسُّك، بل تَعَدَّتْهَا إلى العلاقات الأسرية عامَّة والتربوية خاصَّة، وإنَّ نَظرَةً مُتَمَعِّنَة في جانبٍ من جوانب سيرة هذا الأب العظيم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم لَتُوحي إلينا الكثيرَ بل الكثيرَ جداً من الحرص على تربية النساء والأولاد تربية إبراهيمية حَقَّة.

ثبت في «صحيح البخاري» (١٢٢٩/٣) وغيره من حديث ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام لَّما وضع إسماعيل وأمَّهُ في مكة وقال: ﴿ربنا إنِّي أَسْكَنْتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وتولَّى

منصرفاً عنهم ونادته أم إسماعيل مسْتَفسرةً عن سبب وضعهم هناك قائلةً : آللهُ أمرَكَ بهذا؟ قال : نعم ، قالت : إذاً لا يُضَيِّعُنَا .

هذا الموقف العظيم المهيب من إبراهيم عليه السلام في امْتِثال أمر ربه عز وجل في وضْع وحيدِهِ وفَلَذَةِ كَبِدِهِ الرضيع في ذلك الوادي المُجْدِب ، من غير أنيس ولا ونيس ، يقابله موقفٌ لا يقلُّ عنه عظمةً ومهابَةً هو موقف أمِّنا أم إسماعيل رحمها الله تعالى في حسن وصدق التوكل على الله تعالى التي أيقَنَتْ أنه لن يُضَيِّعهم طالما أنه أمرَ إبراهيم بذلكَ الأمر الذي لم يكن من إنفاذه بدٌّ للخليلِ عليه السلام .

وهذا ينُمُّ عن تربيةٍ عظيمَةٍ من إبراهيم لهذه الزوجة الصالحة التي خلَّدَ الله ذكرها في منسك من مناسك الحج التي لا يصحُّ حج المسلمِ ـ في الصحيح من أقوال أهل العلم ـ إلا به ، ألا وهو السعيُ بين الصفا والمرْوَة ، كما فعلت هذه الأم العظيمة الصابرَةُ الرَّؤومُ .

أما المواقف العظيمة الأخرى في هذا الحديث ، فهي مواقف إسماعيل عليه السلام الذي كان صادق الوعد بامتثال أوامر أبيه له بالاستسلام للذَّبْح مرةً ، وببناء البيتِ معه مرةً أخرى ، وبمفارقةِ زوجته التي لا تصلحُ أن تكونَ عتبةً ثابتة مرةً ثالثة ، ثم بإمساكه وتَثْبيتِه لعتبَة بابه الأخرى الصالحة الساترة لسرِّ حياة زوجها الآمرِ بالصلاة والزكاةِ الذي كان تقياً .

فهل يَسَع المسلمة المتَّبِعَة لملة إبراهيم عليه السلام إلا أنْ تَتَتَبَّع هذه الدروس والعبرالعظيمة من هؤلاء النسوة اللواتي تَرَبَّيْنَ في بيتي النُّبوة الإبراهيمية والإسماعيلية في حد سواء ، لتكونا بعد ذلك جدتَيْن كبيرتين لخَيرِ الخلق محمد ﷺ ، فَضَرَبت أم إسماعيل المثل الأعلى للنساء في الصبر والتضحية وحسن التوكل على الله .

ثم ضَرَبَت كِنَّتُها بعد ذلك أسوأَ المثل للمرأة التي لا تحفظ زوجها في غيبته ، وتسارع إلى نشر سره ، وفضح أمره ، وإكثار الشكوى منه ، ومن حياته التي تعيشها معه ، فما كان من إبراهيم عليه السلام إلا أن أودعها وصيته التربوية العظيمة في أنها لا تستحق أن تكون في بيت نبي يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضياً ، ولا تستحق أن تكون أماً لخَير الخلق محمد ﷺ بعد ذلك ، فقال لها ـ وهي الغبية التي لا تدركُ للزوجية سراً يجب أن يصان ، ولا للأسرة حياة يجب أن تُحْفَظ ويُحَافَظ عليها ـ قال لها بعد أن سألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن

بشرٌ ؛ نحن في ضيقٍ وشدة ، فشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقْرَئي عليه السلام وقولي له : يُغيِّر عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه آنسَ شيئاً ، فقال : هل جاءكم من أحد؟ قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنَّا في جهد وشدة . قال : فهل أوصاكِ بشيء؟ قالت : نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غَيِّر عتبة بابك . قال : ذاك أبي ، وقد أمرني أن أفارقك ، إلحقي بأهلك ، فطلَّقها .

فنالت ما تستحقه من طردٍ هي له أهل من بيت هو من خَير بيوت الأرض قاطبةً .

ثم ها نحن الآن مع الكنَّة العظيمة لتلك الحماة الأعظم . . . المرأة التي ترعى حرمةَ بيْتها وتصونُ سرَّ زوجها ، مترفِّعَةً عن دَنَايَا الدنيا وملذاتها ، محتسبة عند الله ما تلاقيه وتلقاه في سبيل إسعاد زوجها وإدخال الخير والبركة إلى بيته وحياته ، فكانت سبباً في بركاتٍ أودعها الله تلك الفجاج في ذلك الوادي المحل القاحل ، ثم كانت أماً عظمى لأعظم إمام في خير أمة . قال : وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد ، فلم يجده ، فدخل على امرأته ، فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا . قال : كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم . فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله . فقال : ما طعامكم؟ قالت : اللحم . قال : فما شرابكم؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، ومُريه يُثَبت عَتبة بابه .

فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد؟ قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير . قال : فأوصاك بشيء؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تُثَبت عتبة بابك . قال : ذاك أبي ، وأنت العتبة ، أمرني أن أمسكك .

وهكذا أيتها الأخت الفاضلة ، كوني لزوجك عَتَبة بيت ثابتة ، تجلب بصبرها على زوجها وعيشه ، وبثنائها على ربها ونعمه السابِغَة عليها مهما قَلَّت أو دَقَّت ، تجلب الخَير والبركة التي أودعها في أمثال هاتين المرأتين العظيمتين أم إسماعيل بصبرها وحسن توكلها ، وزوجته الثانية بصبرها أيضاً وحسن ثنائها على ولي نعْمَتها . فاستَحَقتَا عن جدارة أن تكونا أُمَّيْن لحبيب الحق وخَير الخلق محمد ﷺ .

حوار مع فضيلة الشيخ فقيه الزمان محمد بن صالح العثيمين حفظه الله

نظمت إدارة الدعوة بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر لقاءً عبر الهاتف مع فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين ، وبعد موعظة عامة أجاب الشيخ على مجموعة من الأسئلة التالية :

(١) السائل : **شخص قال: لا إله إلا الله؛ مخلصاً من قلبه، مصدّقاً بقلبه، مستسلماً منقاداً؛ لكنه لم يعمل بجوارحه خيراً قط مع إمكان العمل. هل هو داخل في المشيئة أم كافر؟**

ج : أقول ـ والحمد لله رب العالمين ـ : إذا كان لا يصلي فهو كافر ولو قال : لا إله إلا الله . لو كان صادقاً بقوله : لا إله إلا الله ، مخلصاً بها ـ والله ـ لن يترك الصلاة ؛ لأن الصلاة صلة بين الإنسان وبين الله عز وجل ؛ فقد جاء في الأدلة من القرآن والسنة ، والنظر الصحيح ، وإجماع الصحابة ـ كما حكاه غير واحد ـ على أن تارك الصلاة كافر مخلد في نار جهنم وليس داخلاً تحت المشيئة ، ونحن إذا قلنا بذلك لم نقله عن فراغ ، ونحن إذا قلنا بذلك فإنما قلناه لأنه من مدلولات كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وأقوال الصحابة التي حُكي إجماعهم عليها .

قال عبدالله بن شقيق : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة .

ونقل إجماع الصحابة على كفر تارك الصلاة الحافظ ابن راهويه ـ رحمه الله ـ وهو إمام مشهور[1] .

(١) اختلف أهل السنة والجماعة ـ أصحاب الحديث ـ أتباع السلف الصالح في مسألة حكم تارك الصلاة ؛ =

أما سائر الأعمال إذا تركها الإنسان كان تحت المشيئة ؛ يعني : لو لم يُزَكِّ مثلاً ؛ فهذا تحت المشيئة ؛ لأن النبي ﷺ لما ذكر عقوبة مانع الزكاة قال : «ثم يرى سبيله إما إلى جنة وإما إلى النار» ، ومعلوم أنه لو كان كافراً لم يكن له سبيل إلى الجنة ، والصيام والحج كذلك ؛ مَن تركها لم يكفر ، وهو تحت المشيئة ، ولكنه يكون أفسق عباد الله .

(٢) السائل : **الشق الثاني يقول: وهل يوجد خلاف بين أهل السنة في حكم هذا الرجل بناءً على حكم تارك مباني الإسلام الأربع والخلاف فيها؟**

ج : مسألة الخلاف لا أستطيع حصره ، **ولكن يجب أن نعلم أن الكفر حكم شرعي لا يُتَلَقَّى إلا من الشرع، وأن الأصل في المسلمين الإسلام حتى يدلّ دليل على خروجهم منه.**

والتسرّع في التكفير خطير جداً جداً جداً، حتى أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال محذِّراً منه ـ أي : من التكفير ـ : «مَنْ دعا رجلاً بالكفر ، أو قال : يا عدو الله . وليس كذلك ؛ حار عليه» ؛ أي : على القائل ؛ أي : رجع على القائل .

(٣) السائل : **سائل آخر يقول: كيف نفهم حديث أبي سعيد الخدري . رضي الله عنه . عند مسلم؛ وفيه: «.. فيخرج الله منها قوماً لم يعملوا خيراً قط»؟**

ج : نفهم هذا أنه عام ، وأنّ أدلة كفر تارك الصلاة خاصة ، ومعلوم عند العلماء أن العام لا يخصَّص بخاص ؛ لأن هذا الحديث لم يَقُلْ : لم يصلِّ ؛ حتى نقول : إنه معارض للنصوص الدالة على كفر تارك الصلاة ، بل قال : «لم يعمل خيراً قط» ؛ فلم ينصّ على الصلاة ، بل عمّم ، ونصوص كفر تارك الصلاة خاصة ؛ فتُخَصُّ بما خُصِّصَتْ به .

(٤) السائل : **الخلاف الواقع في حكم تارك الصلاة؛ هل هو خلاف داخل في دائرة أهل السنة أم لا؟**

= كما نقله أبو اسماعيل عبدالرحمن بن اسماعيل الصابوني ـ رحمه الله في «عقيدة السلف أصحاب الحديث» (ص٩٢ ـ ٩٣) ، والبغوي ـ رحمه الله ـ في «شرح السنة» (١٧٩/٢ ـ ١٨٠) ، والشوكاني ـ رحمه الله ـ في «نيل الأوطار» (٣٦٩/١) ، وذكره الشيخ ـ حفظه الله ـ في رسالته «حكم تارك الصلاة» (ص١) ، وقال : «هذه المسألة من مسائل العلم الكبرى ، وقد تنازع فيها أهل العلم سلفاً وخلفاً» .

وعليه ؛ فإن الخلاف في مسألة تارك الصلاة خلاف معتبر بين أهل السنة والجماعة ، ولكن دائرة الخلاف لم تخرج في مسائل التكفير عن هذه المسألة ، فمن وسَّع دائرة الخلاف في مسائل التكفير بين أهل السنة كمن نفى اختلافهم في مسألة تكفير تارك الصلاة ؛ فيسعنا ما وسعهم ـ رحمهم الله ـ كما في نصيحة الشيخ ـ حفظه الله ـ في جوابه على السؤال التاسع (الأصالة) .

ج : نعم ، خـــلاف داخل في دائرة أهل السنة ، وأهل السنة أنفسهم مختلفون في هذا ؛ كـما يختلفون ـ مثلاً ـ في فروض الوضوء ، ووجوب الوضوء من لحم الإبل ، وما أشبه ذلك .

(٥) السائل : **يقول البعض: إذا ترك عمل الجوارح بالكلية خرج من الإيمان، ولكن لا يقتضي عدم انتفاعه بأصل الإيمان والشهادتين، بل ينتفع بهما كمن أراد الحج ولم يشهد عرفة . وهو ركن .؛ فإنه ينتفع بالأركان الأخرى؛ فما قول فضيلتكم في ذلك؟**

ج : نقول : هذا ليس بصواب . إنه لن ينتفع بإيمانه مع ترك الصلاة التي دلّت النصوص على كفر تاركها ، وكذلك لو ترك الوقوف بعرفة ما صحّ حجّه ؛ كما دلّ على ذلك سنة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، أما مَن أدرك عرفة قبل الفجر يوم النحر ؛ فقد أدرك ، ومن لا ؛ فلا ؛ حتى لو جاء بعد ذلك بالرمي والمبيت في منى والطواف والسعي ؛ لم يكن حجّ .

(٦) السائل : **هذا سائل يقول: يقول البعض: إن الشيخ الألباني - رحمه الله - قوله في مسائل الإيمان قول المرجئة، فما قول فضيلتكم في هذا؟**

ج : أقول كما قال الأول :

الألباني - رحمه الله - عالمٌ محدّث فقيهٌ، وإن كان محدّثاً أقوى منه فقيهاً، ولا أعلم له كلاماً يدلّ على الإرجاء أبداً، لكن الذين يريدون أن يكفّروا الناس يقولون عنه وعن أمثاله: إنهم مرجئة؛ فهو من باب التلقيب بألقاب السوء، وأنا أشهد للشيخ الألباني - رحمه الله - بالاستقامة، وسلامة المعتقد، وحسن المقصد.

أقُلُّوا عليه لا أباً لأبيكم

من اللوم أو سدُّوا المكان الذي سدّا

الألباني ـ رحمه الله ـ عالمٌ محدّثٌ فقيهٌ ، وإن كان محدّثاً أقوى منه فقيهاً ، ولا أعلم له كلاماً يدلّ على الإرجاء أبداً ، لكن الذين

يريدون أن يكفّـروا الناس يقـولون عنه وعن أمثاله : إنهم مرجئة ؛ فهو من باب التلقيب بألقاب السوء[1] ، وأنا أشهد للشيخ الألباني ـ رحمه الله ـ بالاستقامة وسلامة المعتقد وحسن المقصد[2] ، ولكن مع ذلك ؛ لا نقول أنه لا يخطئ ؛ لأنه لا أحد معصوم إلا الرسول عليه الصلاة والسلام ، قد يخطئ في مسائل يكون الصواب فيها خلاف قوله ، وقد يكون الصواب في قوله ؛ لكن العمل به غير صواب ؛ كما قال في مسألة التبرج وجواز كشف الوجه واليدين ؛ فإنّ هذا حتى لو كان هذا ما تقتضيه الأدلة عنده ؛ فلا ينبغي نشره في هذا الزمن ؛ لأن الناس متأهبون جداً ـ أعني : كثيراً من الناس ـ لمثل هذا ؛ فما دام الناس محافظين لا حاجة لأن نفتح لهم الباب ؛ لأنهم لم يتركوا واجباً ، وهذه خطة يجب على طالب العلم أن ينتبه لها ، وهي أنه إذا تضمن الشيء شرّاً ؛ فليمسك . أرأيتم حديث النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لمعاذ حين قال له : «أتدري ما حقّ الله على العباد ، وما حقّ العباد على الله؟» . قال : الله ورسوله أعلم . قال : «حقّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذِّبَ مَن لا يشرك به شيئاً» ، فقال معاذ : أفلا أبشِّر الناس يا رسول الله . قال : «لا تبشرهم ؛ فيتّكِلُوا» . فمنعه من إفشاء هذا الحديث ؛ مع أنه مسألة في العقيدة مهم جداً ؛ خوفاً من أن تفهم بهذا الشكل . وأراد أن يهدم الكعبة ويبنيها على قواعد إبراهيم ، ولكن منعه أنّ قريشاً كانوا حديثي عهد بكفر ؛ فخاف أن يكون بذلك فتنة . والعالم حقيقة هو الذي يكون عنده علم ، ويربّي الناس ؛ فالعلم ليس نظريات فقط ، بل نظريات وتطبيق .

(٧) السائل: **هذا سائل ينقل كلاماً لشيخ الإسلام ابن تيمية ويطلب التوضيح: «الإيمان منه ما هو ركن لا يتم الإيمان إلا به، ومنه ما هو واجب ينقص بفواته نقصاً يستحق صاحبه العقوبة، ومنه ما هو مستحب يفوت بفواته علو الدرجة؛ فمن سواء أجزائه ما إذا ذهب نقص عن الأكمل، ومنه إذا ذهب ذهب عن الكمال، ومنه ما إذا ذهب ذهب الإيمان بالكلية؛ وهو القول والاعتقاد» كما ذكر الأخ هذا الكلام لشيخ الإسلام.**

قال الشيخ : وأيش الإشكال؟

قال المحاور : **الأخ يطلب توضيح هذا الكلام.**

ج : **هذا واضح: الإيمان منه ما تركه كفر كما لو أنكر أحد أركان الإيمان؛ هذا**

(١) وهذا من علامات أهل البدع ، وانظر «عقيدة السلف أصحاب الحديث» للصابوني (ص١١٩) (الأصالة) .

(٢) وانظر ـ لزاماً ـ : «التعريف والتنبئة بتأصيلات الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في مسائل الإيمان والرد على المرجئة» (الأصالة) .

كفر، ومنه ما هو كمال؛ مثل قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»؛ المراد هنا كمال الإيمان، وقد يكون فيه شيء مستحبّ؛ كما أخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن النساء ناقصات عقل ودين، وجعل نقصان دينها أن تترك الصلاة في أيام الحيض، مع أنّ هذا ليس بإرادتها.. هذا نقص الكمال.

(٨) السائل: «تارك جنس العمل كافر، تارك آحاد العمل ليس بكافر»؛ ما رأيكم في ذلك؟

ج: مَنْ قال هذه القاعدة؟! من قائلها؟! هل قالها محمد رسول الله؟! كلام لا معنى له.

نقول: مَن كفّره الله ورسوله فهو كافر، ومَن لم يكفّره الله ورسوله فليس بكافر.. هذا الصواب. أما جنس العمل أو نوع العمل أو آحاد العمل؛ فهذا كلّه طنطنة لا فائدة منها.

(٩) السائل: هل أعمال الجوارح شرط في أصل الإيمان وصحّته أم أنها شرط في كمال الإيمان الواجب؟

ج: تختلف؛ فتارك الصلاة ـ مثلاً ـ كافر. إذاً؛ فعلُ الصلاة من لوازم الإيمان.

وإني أنصح إخواني أن يتركوا هذه الأشياء والبحث فيها، وأن يرجعوا إلى ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، والسلف الصالح لم يكونوا يعرفون مثل هذه الأمور. المؤمن مَن جعله الله ورسوله مؤمناً، والكافر مَن جعله الله ورسوله كافراً. وانتهى.

(١٠) السائل: إذا كنا في بلد يفتي أهل العلم فيها بأن تارك الصلاة ليس كافراً كفراً أكبر؛ فإذا مات تارك للصلاة في هذا البلد؛ فهل يترك الناس غسله والصلاة عليه، وهل يمنعون دفنه في مقابر المسلمين في هذا البلد؟ وهل مات مسلماً لأنه مقلّد لعلماء بلده؟

ج: أما مَن يعتقد أنه كافر نعم؛ فهذا لا يصلي عليه، وأما مَن لا يعتقد؛ فليصلِّ عليه، وهكذا ينظر في الخلاف.

(١١) السائل: سائل يقول: نعلم أنّ هناك المسلم والكافر، ولكن هل هناك مَن نستطيع أن نصفه بأنه مجهول الحكم؟ وهل استعمل أهل العلم من السلف هذه اللفظة؟

ج: لا. الحكم واضح محدّد في كتاب الله عز وجل، قال الله عز وجل: ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾، ولا في أحد مجهول الحال إلا إذا كانت الأدلة مشتبهة عند بعض الناس في كفره أو إيمانه، صار مجهولاً من حيث الحكم، أو أن الرجل نفسه مجهول لا يدرى عنه؛ فهذا مجهول من حيث الحال، ومع ذلك، فالأصل في المسلمين

الإسلام حتى يقوم دليل صريح في خروجهم من الإسلام ، وإذا قُدِّر أن قُدِّم جنازة وصاحبها مبتدع نشكّ في إيمانه ؛ فهذا نستثني عند الدعاء له فنقول : اللهم إن كان مؤمناً فاغفر له وارحمه . والشرط في الدعاء جاء في القرآن كما في قوله تعالى : ﴿**والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين. والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. ويدرأ عنها العذابَ أن تشهدَ أربع شهادات بالله إنّه لمن الكاذبين. والخامسة أنَّ غضب الله عليها إنْ كان من الصادقين**﴾ . التثنية إذا شككت هذا إذا كان الشكّ أصلاً ومعتمداً ، وإلا فالأصل في جنائز المسلمين أنهم مسلمون ؛ فادعُ الله ولا تستثنِ .

(١٢) السائل : **سائل يقول: نرجو توضيح كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حيث قال: «ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال؛ فالعمل يصدق أن في القلب إيماناً، وإذا لم يكن عمل كذب أن في القلب إيماناً؛ لأن ما في القلب مستلزم للعمل الظاهر، وانتفاء اللازم يدلّ على انتفاء الملزوم».**

ج : كلام الشيخ ظاهر ، وهو مرويّ عن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : «أن الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلّي ، ولكن ما وقر في القلب ، وصدقته الأعمال» ، وهذا معلوم من قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : «ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ؛ ألا وهي القلب» ؛ فمعلوم أن القلب إذا كان فيه إيمان ؛ فلا بد أن تظهر مقتضياته على الجوارح .

(١٣) السائل : **قائل يقول: «الكفر الأكبر والشرك الأكبر يعود إلى الاستحلال القلبي؛ فليس هناك عمل أو قول هو كفر أكبر إلا إذا تضمّن الاستحلال القلبي»؛ فما رأيكم في هذا القول، وهل هذا هو معتقد أهل السنة؟**

ج : كل هذا كلام فارغ . الكفر والإيمان موكول للشرع ؛ فمَن كفّره الله ورسوله فهو كافر ؛ سواء بعمل أو اعتقاد أو قول أو فعل ، ومَن لم يكفّره الله ورسوله ـ وهو منتسب إلى الإسلام ـ ؛ فهو مؤمن لا يحلّ لنا أن نكفّره .

ولو أنّ طلبة العلم المبتدئين والشباب الغيورين سلكوا هذا المسلك الذي قلنا سلموا من هذه التقريرات وهذه التعبيرات .

الكافر مَن كفّره الله ورسوله ، والمؤمن المنتسب للإسلام مَن لم يكفّره الله ورسوله .

(١٤) السائل : **فضيلة الشيخ.. سائل يقول: ذكرتم في محاضرتكم هذه أنه يجب على طالب العلم أن يفتي بما عليه الجمهور.**

- الشيخ معترضاً : أنا ما قلت هكذا ، لكن السائل فهم هذا الفهم ، قلنا : إذا رأى الإنسان

أن هذا القول صواب ، ولكن يخالف الجمهور ؛ فلا يتعجّل في الإفتاء به حتى يحقّق ويراجع العلماء ويطالع الكتب ؛ أنّ ما هو عليه هو الصواب ، وكثيراً ما يذكر الإنسان أن ما عليه الناس خطأ ، ثم بعد البحث والمناقشة يتبين أنه الصواب ؛ فأقول وأكرّر : إذا تراءى لك أن هذا القول صواب وراجح ، وهو مخالف لجمهور العلماء ، أو ما عليه علماء البلاد ؛ فلا تتعجّل في الإفتاء به ، حتى تتأكّد وتردد ويظهر لك بعد البحث والمناقشة والمراجعة أن الصواب معك ؛ فحينئذٍ لا بد من بيان الصواب ، فرقٌ بين قوله : لا يفتي بخلافه . وبين قولي : لا يفتي حتى يتأكّد .

(١٥) السائل : **فضيلة الشيخ.. سائل يقول: هل أفتيتم بجواز الانتخابات؟ وما حكمها؟**

ج : نعم ، أفتينا بذلك ، ولا بد من هذا ؛ لأنه إذا فقد صوت المسلمين معناه تمحض المجلس لأهل الشر ، وإذا شارك المسلمون في الانتخابات انتخبوا مَن يرون أنهم أهل لذلك فيحصل بهذا خير وبركة .

(١٦) السائل : **سائل يقول: ما حكم من التحق بالجماعات والأحزاب الإسلامية؟**

ج : أما مَن التحق بطريقة السلف ؛ فهذا هو الذي على الحق ، وما خالف ذلك ؛ ففرقة ، وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الذي صحّحه كثير من العلماء ؛ أن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة قالوا : مَن هي؟ قال : «مَن كان على مثل ما عليه أنا وأصحابي» . فالفرقة المنصورة الظاهرة هي التي كانت على منهج السلف الصالح عقيدة بالجنان ، وقولاً باللسان ، وعملاً بالأركان .

(١٧) السائل : **سائل يقول: ما قول الشيخ - حفظه الله - في تدريس هذا الكتاب للناشئة، وهو مشتمل على العناوين الآتية المكتوبة بالخط البارز سنذكرها لكم: يقول: «لا يكفر المسلم حتى يترك أصل الإيمان القلبي»؟**

ج : أنا قلت في هذا اللقاء : إن تارك الصلاة كافر ، ولو كان مقرّاً بوجوبها .

السائل : **يقول في موطن آخر: «جمهور العلماء - وليس المرجئة - يقولون بنجاة تارك العمل».**

ج : هؤلاء يريدون سفك الدماء واستحلال الحرام ، لماذا صاحب هذا الكتاب؟ ما أصل أصول أهل السنة والجماعة كما أصّلها شيخ الإسلام ابن تيمية في «العقيدة الواسطية» ، أما أن لا يكون لهم همّ إلا التكفير (جنس العمل - نوع العمل - آحاد العمل) وما أشبه ذلك ، لماذا . . . . (كلمة غير واضحة للشيخ - حفظه الله -) .

السائل : **نأسف على الإطالة في هذا النوع من الأسئلة. حقيقة، إن سبب**

الطرح أن أحد طلبة العلم عندنا هنا في قطر يدرس في هذا الكتاب الذي يدور حول هذه المسائل والقضايا.

الشيخ : أنا ما أقول شيء بالنسبة للكتاب ، تغيره أو تبديله الواجب على وزارة المعارف أو التعليم العالي أن تنظر في هذا الكتاب وتلغيه إذا كان ليس لكاتبه همّ إلا هذا ؛ فهذا لا خلاف فيه .

السائل : **يقول البعض: إنه لا بد أن نبدأ بمسائل الإيمان والحكم على الناس في الإيمان والكفر، وأن هذا هو أهم أمور التوحيد، ولا بد من صرف الهمّة إلى هذا الأمر؛ فهل هذا صحيح؟ وما هي المراحل التي يبدأ بها علم التوحيد، والتي ينبغي تعليمها أولاً للناس؟**

ج : هذا صحيح بالنسبة إذا كنا نخاطب كفّاراً ، أما إذا كنا نخاطب مسلمين معنا يصلّون صلاتنا ، ويصومون صومنا ، ويحجّون حجّنا ؛ فنبيّن لهم أحكام هذه الأعمال ، ثم أيضاً نبين التوحيد ؛ لأنه قد يوجد في بعض البلاد الإسلامية ما هو كفر أكبر وشرك أكبر ؛ فهنا لا بد من البيان .

وإلى هنا ينتهي هذا اللقاء ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

قال الإمام أحمد:

لا ينبغي للفقيه أن يحمل الناس على مذهبه .

«الآداب الشرعية»
لابن مفلح الحنبلي (١/١٨٧)

العلامة المحدث الألباني

بين الذابين عنه، والرادين عليه

● بقلم: عبدالله بن حسين الموجان

. . . رحم الله الشاطبي عندما قال : «إن تحكيم الرجال من غير التفات إلى كونهم وسائل للحكم الشرعي المطلوب شرعاً ضلال ، وإن الحجة القاطعة للحكم الأعلى هو الشرع لا غيره» .

الشيخ الألباني علم من أعلام الدعوة السلفية في هذا العصر ، وإن كان أعلام السلفية في هذا العصر كثيرين كسماحة الوالد الشيخ عبدالعزيز بن باز ، والعلامة عبدالرزاق عفيفي ، ومن قبلهم أمثال أحمد شاكر ، ومحمد عبدالرزاق حمزة ، ومحمد نصيف ، وغيرهم كثير ـ رحمهم الله جميعاً ـ .

إلا أن اختيارنا للشيخ الألباني نموذجاً لامتداد محنة المدرسة السلفية مع المخالفين كان سببه أن الألباني ـ رحمه الله ـ ابتلي بجمع غفير من المخالفين والمناوئين ممن وقعوا فيه بالتأليف والقذف والسبِّ وإغراء السلطات به محاولة للنيل منه ، وإن شئت فقل محاولة للنيل من الدعوة السلفية التي يمثّلها .

بل بلغ من حقد المخالفين له أن صرحوا أو قاربوا بتكفيره ؛ فضلاً عن تبديعه أو رميه بالبهتان .

ومن يردّ على الألباني وينال منه : إما متمسح بلباس العلماء زوراً ، أو طويلب مغمور أراد التسلق ليظهر .

ومن الإنصاف أن يقال : إن هناك من رد على الألباني بحق ؛ لكنه التزم جانب الرد العلمي السوي مع اعتراف بفضله وإذعان لمآثره التي غطت طباق العالم الإسلامي كله .

لقد أصبح خطباء الجمع ووعاظ المساجد في هذا العصر يحرصون على عزو الأحاديث

إلى مصادرها خوفاً من نسبة حديث ضعيف إلى النبي ﷺ بعد الصيحة التحذيرية التي بثها الشيخ في الأمة ، والتي كان كل من شاء يتكلم بما شاء .

لقد رد الشيخ وتلاميذه على الهجمة الشرسة التي رمى بها أصحاب البدع السلفية، وما زال السلفيون يجيبونهم بالحجج القارعة، والأدلة الدامغة، وأحببت أن أسطر شيئاً من ذلك، فإن هذه الهجمات على الدعوة السلفية علامة الإرث الصحيح، فأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

من هو الألباني؟

لقد كتب الشيباني (حفظه الله) مجلدين كبيرين في التعريف بالألباني ومآثره ، ونود أن نضيف إلى ذلك أنه لم يمدح الألباني طلابه فحسب ، بل علماء الأمة ومفكروها مذعنون له ، بل المخالفون له يستفيدون من كتبه ولا ينسبون الفضل إليه تَحَيُّفاً عليه .

إن «السلسلتين» (الصحيحة والضعيفة) كافيتان في التعريف بعلم الألباني ، هذا الرجل الذي جاء من ألبانيا واستوطن الشام ، وبدأ حياته عصامياً يعمل في إصلاح الساعات ، ثم أُولع بمطالعة القصص العربية كالظاهر وعنترة ، ثم عثر على «مجلة المنار» ؛ فاتجه إلى السلفية والحديث .

يقول الألباني عن نفسه[1] (ص ٣٣٥ ، ٣٣٦) :

ومن يردّ على الألباني وينال منه : إما متمسح بلباس العلماء زوراً، أو طويلب مغمور أراد التسلق ليظهر.
ومن الإنصاف أن يقال : إن هناك من رد على الألباني بحق لكنه التزم جانب الرد العلمي السوي مع اعتراف بفضله وإذعان لمآثره التي غطت طباق العالم الإسلامي كله.

(١) «حياة الألباني» لمحمد بن إبراهيم الشيباني (٤٦/١) وما بعدها .

«أول ما ولعت بمطالعته من الكتب : القصص العربية كالظاهر وعنترة و . .» إلى أن قال : «وذات يوم لا حظت بين الكتب المعروضة لدى أحد الباعة جزءاً من مجلة المنار فاطلعت عليه ، ووقعت على بحث بقلم السيد محمد رشيد رضا يصف فيه كتاب «الإحياء» للغزالي ، ويشير إلى محاسنه ومآخذه ، ولأول مرة أواجه مثل هذا النقد العلمي ؛ فاجتذبني ذلك إلى مطالعة الجزء كله . . .» .

ويقول : «فإذا كان من الحق أن يعترف أهل الفضل بالفضل لذويه ، فأجد نفسي بهذه المناسبة الطيبة مسجلاً هذه الكلمة الطيبة ليطلع عليها من بلغته ، فإنني بفضل الله عز وجل بما أنا فيه من الاتجاه إلى السلفية أولاً ، وإلى تمييز الأحاديث الضعيفة والصحيحة ثانياً ؛ يعود الفضل الأول في ذلك إلى السيد رضا رحمه الله عن طريق أعداد مجلته (المنار) التي وقفت عليها أول اشتغالي بطلب العلم . .» اهـ .

ومن هنا نتبين توجه الشيخ إلى السلفية متى بدأ وظهر . وعلى مر الأزمان صار الشيخ علماً على الدعوة السلفية في هذا العصر وأثر في كل الاتجاهات الفكرية .

يقول صاحب كتاب «محمد رشيد رضا : دعوة وإصلاح»[1] :

«لا يشك أحد في أن علامة الشام الألباني قد أثر في فكر الدعوات الإسلامية الموجودة الآن على اختلاف مناهجها ، كما لا يشك منصف في أن محدث الشام قد بعث روح السلفية في كثير من الأفراد والجماعات الإسلامية ، وجدد ما درس من الشريعة والدين ، وأكد على ضرورة الالتزام بالمنهج الحديثي في التصحيح والتضعيف ؛ لئلا يقع المسلم في نسبة حديث للنبي ﷺ لم يقله ، أو في نفي رواية صحيحة عن النبي ﷺ لأنها خالفت رأي إنسان أو آخر . . .» أ . هـ .

ويقول الأستاذ أحمد العظمة[2] :

«عرفت دمشق محدثها الأكبر العلامة الشيخ بدر الدين الحسيني ، فلما توفَّاهُ الله خلت الديار من إمام تتجه الأنظار إليه في علوم الحديث .

غير أن فتى أرناؤوطياً (نشأ نشأة علم وتقى ، وكان له من اسمه نصيب هو الأستاذ محمد ناصر الدين) عرف في أوساط الشباب بخدمته الحديث وعلومه وجمع الشباب عليه ، واشتهر بينهم ، واستطاع بفصاحة لسانه العربي وطلاوة حديثه وجودة مناقشته أن يستأثر بنخبة تأخذ عنه وتتلمذ عليه .

(١) (ص ٣٣٤) .

(٢) «بدعة التعصب المذهبي» (ص ١٢٠ ، ١٢١) .

وإذا كان الحديث ثاني مصدر للفقه الإسلامي بعد كتاب الله ، وكان يعتبر ما صح عند أهل الحديث مذهباً لأهل الفقه ، لذلك اشتهر بعض أنصار الشيخ ناصر بتركهم من الأحكام المذهبية ما عرفوا فيه حديثاً ثابتاً صحيحاً ، وبعضهم كان يثير اللغط ، ومن هنا تألب على الأستاذ من تألب» .

ويقول محمد عيد عباسي[1] :

«وتذكر في هذه المناسبة أن كبار علماء العالم الإسلامي قد اعترفوا بفضل شيخنا وأثنوا عليه ، فمنهم الشيخ أبو الفيض أحمد الغماري المحدث المغربي ، ومنهم الشيخ عبيدالله الرحماني المباركفوري مدير الجامعة المركزية في بنارس في الهند ، فقد أرسل إليه رسالة يستفتيه فيها في بعض الأحاديث ويثني عليه بأنه اطلع على مخطوطات الحديث وتبحر في علومه ، وأنه ذو أفق واسع في الحديث ورجاله ، ومن الجدير بالذكر أن هذه الجامعة كانت قد دعت الشيخ ناصر لتسليمه مشيخة الحديث فيها ، كما دعته منذ أشهر لحضور حفلة توزيع الشهادات على المتخرجين فيها .

وممن اعترف بفضل الشيخ كذلك الشيخ عبدالصمد شرف الدين ، وهو من كبار علماء الهند ومحدثيها ، وقد وصف الشيخ في رسالة منه إليه بأنه أكبر عالم في الحديث في العصر الحاضر ، كما أننا نذكر في هذه المناسبة أن لجنة الحديث في مصر ـ في عهد الوحدة ـ قد اختارت الشيخ ناصر ليكون عضواً فيها ، كما أن الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة كانت قد اختارته لتدريس الحديث فيها ، واستمر في ذلك عدة سنوات ، وما يزال مديرها الشيخ الكبير عبدالعزيز بن باز ، يكنُّ له كلَّ محبة وتقدير ويعترف بفضله وعلمه .

وما لنا نذهب بعيداً ، وها هي كتب الشيخ تشهد بأوضح بيان بتفوقه الكبير في هذا العلم الشريف ، الذي كاد ينقرض من دنيا المسلمين مع الأسف ، بسبب هذه المذهبية المتعصبة التي يدعو إليها البوطي وأمثاله ، ويرفعون عقيرتهم في التهجم على من يكشف عوارها ، ويظهر زيفها ، وليس مثل علماء الحديث من يفعل ذلك .

أضف إلى ذلك ، أننا وجدنا لديه الوعي الصحيح والصدر الرحب للبحث العلمي الحر النزيه ، بحيث يستطيع أبسط تلميذ مناقشته في أي أمر ، ومطالبته بالدليل والرد عليه ، دون أن يضيق بذلك ذرعاً ولا يضجر ولا يتأفف ، بينما لا يحتمل غيره أن يسأله أحد عن دليله ، كما أنه يشجعنا دائماً على انتقاده ، ويحثنا على تنبيهه إلى خطئه ، هذا

(١) «بدعة التعصب المذهبي» (ص ٢٥٣ ـ ٢٥٦) .

مع أخلاق فاضلة وتواضع جميل ، وإخلاص له ، وجهاد في سبيله ، ونظافة في اليد ، وجرأة في الحق ، وعدم المداهنة والمجاملة على حسابه ، والاستقلال في البحث والشخصية ، إلى آخر هذه الصفات التي لم نجد مثلها لدى أي شيخ عرفناه في بلادنا هذه .

وقد علّمنا شيخنا ـ حفظه الله ـ التمسك بالحق وحده ، والمطالبة بالدليل ، وعدم التعصب للرجال ، وقد وجدناه يسر إذا خالفه أحد في بعض آرائه بشرط أن يكون متمسكاً بدليل ، ومقتنعاً به ، ولذلك فنحن لا ندعو أحداً إلى التمسك بآراء شيخنا إلا إذا اقتنع بها ، واطلع على دليلها ، وليس بعيداً أننا حينما نتمكن من العلم ونقوى في البحث والنظر قد نخالف شيخنا في بعض آرائه ، ونحن موقنون بأنه يسر بذلك ، لأن العلم بحر واسع ، وكل أحد يَرُدّ ويُرَد عليه إلا النبي ﷺ ، حسبه أنه أنشأ تلاميذ همّهم اتباع الحق ، والسعي له ، والتعلق به ، وأرشدهم إلى طريق الوصول إليه ، وأعطاهم المنهج العلمي الصحيح ؛ فجزاه الله عنا وعن دينه خير الجزاء .

وقد ألف شيخنا ـ حفظه الله ـ طائفة من الكتب في الحديث والفقه ، فوجدنا فيها العلم الصحيح مع الأدلة الواضحة والتحقيق العلمي الرفيع ، ولم نجد أحداً من مشايخ بلادنا رد عليه بطريقة علمية صحيحة ، وأثبت خطأه وقصوره ، وكل ما وجدناه من كثير منهم مع الأسف حملات مسعورة وشتائم ظالمة وتنقص وطعن وتحامل ، فبعضهم وصل به الحقد إلى أن ينكر أن يكون للشيخ أي حظ من العلم بالحديث واللغة والفقه والدين ، وبعضهم يدعي أنه عالم بالحديث ولا يفهم الفقه ، ومن الجدير بالذكر أن بعض هؤلاء الطاعنين هو من المشككين بالسنة ، وممن يرد بعضها بحسب ما يخيل لعقله القاصر ، وبعض هؤلاء يطعنون في الشيخ ؛ لأنه لم يأخذ علمه من مشايخ مثلهم ، ويقولون : إنه أخذ عن الصحف ، فهو صحفي .

ومن يدري فلعله لو أخذ عن مثله لكان نسخة منهم ، في الجمود والتقليد والتعصب وضيق الأفق ، والجهل بالسنة ، والبعد عن المنهج العلمي الصحيح .

وإذا نظرت إلى جميع هذه التهم والطعون وجدتها مشبعة بروح التحامل والخصومة، ومنبعثة من دافع الحقد والحسد وليس فيها نقد نزيه، ولا بحث علمي.

كما أننا قد رأينا الشيخ أعلم وأرفع وأصوب من جميع خصومه ، وقد سمعناه يعلن مراراً عن استعداده للاجتماع بأي عالم بقصد التواصي بالحق والتناصح في العلم والمناقشة في الرأي ، وأعلن عن استعداده

للتـــراجع عن أي رأي إذا اطلع على دليل صحيح يخالفه ، كما أنه يرحب بأي نقد علمي لأيٍّ كتاب من كتبه ، فلذلك كله آثرنا شيخنا على غيره ، فهل نحن ملومون في ذلك ومخطئون؟» .

وقال علي حسن عبدالحميد في معرض رده على بعض الهجوم على الألباني :

«من عجيب أمر هذا المدعي (الغماري) أنه كثير المناقضة لنفسه ، يقع فيما ينهى الآخرين عنه ، ويتصف بما يذم الآخرين بتلبسه يقول في رسالته ـ القول المقنع في الرد على الألباني المبتدع ـ (ص١٢) نبزاً وطعناً في شيخنا الألباني : ومن معايبه وما أكثرها لمزه لمن يخالفه بالابتداع ، فهو عند نفسه قسيم النار : من كان معه فهو سني يستحق الجنة ، ومن خالفه فهو مبتدع يستحق النار . وهذه تالله كبرى معايب الغماري بشهادة نفسه على نفسه ، وكأنه بدأ يختلط عليه الأمور ، فهو يعد رمي المخالف بالابتداع من المعايب ثم يلقب مخالفه في الرسالة التي يقول فيها هذا الكلام نفسه في عنوانها بالمبتدع ، فأي تناقض أكبر من هذا»[1] .

هذا هو الألباني في هذا العصر عند محبيه وتلاميذه ، فماذا عن المخالفين؟! وماذا عنه؟! :

هيا نتلقف من هذا المستنقع شيئاً يبين لنا كيف حسدوه إذ لم ينالوا سعيه ، فالقوم أعداء له وخصوم :

يقول أحمد عبدالغفور عطار :

«وما أكثر علماء السوء الذين لا هم لهم إلا ترك الأعداء وفتح ثغور في الإسلام ليقتحموا منها عليه معتقده ومنعته وحصونه وقوته وأهله وكتابه وسنته وصحابة رسوله الكرام وخلفاءه الراشدين والتابعين والأئمة والفقهاء الصالحين ، فيثخنون فيهم جرحاً وتقتيلاً بأسلحة هؤلاء المسلمين الذين يدعون الغيرة والإصلاح ، وما هم إلا المفسدون الحاطمون .

ومن هؤلاء : محمد ناصر الدين الألباني ، وهو في لوثته وسوء أدبه وتجنيه على سادتنا سادة المسلمين جميعاً عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وتميم الداري ، وأبي بن كعب ، والمهاجرين والأنصار وصحابة رسول الله ﷺ والتابعين وأئمة الإسلام وفقهائه والمسلمين كافة قذيفة من قذائف أعداء الإسلام انفجرت فشاء الله أن تبيد هي نفسها قبل أن تبيد» .

وقال إسماعيل بن محمد الأنصاري[2] :

«بعد كتابتي وفراغي من إتمام النظر في

(١) من مقدمة كتاب «كشف المتواري من تلبيسات الغماري ورد عدوانه على أهل السنة» كتبه علي الحلبي .

(٢) وهو من العلماء السلفيين ، إلا أنه زلق عندما رد على الألباني في مسألة فقهية ، رحمه الله وعفا عنه .

رسالتي هذه بمدة طويلة وقفت على كتاب ظهر في أجزاء متسلسلة بعنوان «الألباني شذوذه وأخطاؤه» بقلم أرشد السلفي أحد علماء الهند وقد رد فيه على الألباني رداً بالغاً ، وذكر النماذج تلو النماذج من أخطائه وانحرافاته في الفهم والحكم ، وقد استحسنتُ أن أذيل رسالتي هذه بما كتبه الشيخ أرشد السلفي في كتابه «الألباني شذوذه وأخطاؤه» حول تحريم الذهب المحلق للنساء ، ليشهد القراء في كتاب هذا العالِم الهندي تأييد ما ذهبنا إليه في الرد على الألباني ، وباطل دعواه التي لم يقل بها أحد من قبل ، وليعلم الألباني أن سكوت العلماء عنه ليس معناه التسليم له بصواب ما يقوله أو يدعيه كما يدعي ذلك هو ، ويظن بل قد يكون سكوتهم عنه لأمور أخرى»[1] .

وقال الشيخ أرشد السلفي بعد البسملة في أول كتابه المذكور :

«مبلغ علم الألباني : الشيخ ناصر الدين الألباني شديد الولوع بتخطئة الحذاق من كبار علماء الإسلام ، ولا يحابي في ذلك أحداً كائناً من كان ، فتراه يوهِّم البخاري ومسلماً ومن دونهما ، ويغلِّط ابن عبدالبر وابن حزم وابن تيمية والذهبي وابن القيم وابن حجر والصنعاني والشوكاني ، ويكثر من ذلك حتى يظن الجهلة والسذج من العلماء : أن الألباني نبغ في هذا العصر نبوغاً يندر مثله ، وهذا الذي ينم عنه ما يتبجح به الألباني في كثير من المواطن ، ويلفت إليه أنظار قارئيه فتارة يقول : اغتنم هذا التحقيق فإنك لا تجده في غير هذا الموضع (يعني عند غيره من المصنفين) وتارة يدعي أنه خصه الله تعالى في هذا العصر بالوقوف على زيادات الحديث الواردة في مختلف طرقه المنتشرة في الكتب المبعثرة وبذلك وصل إلى ما لم يصل إليه غيره من المحققين السابقين ولا اللاحقين .

ولكن من كان يعرف الألباني ومن له إلمام بتاريخه يعرف أنه لم يتلقّ العلم من أفواه العلماء ، وما جثا بين أيديهم للاستفادة وإنما العلم بالتعلم . .» .

. . . كما كتب بعض الأذناب كتباً في الرد على الألباني منهم صاحب «التحذير والتنبيه من تعدي الألباني - زعم - على صحيح مسلم» ، وصاحب« التناقضات» وأمثال هؤلاء المدعومين مالياً وروحياً من أهل البدع في العالم الإسلامي ، وليسوا إلا من صغار الذين أحبوا التسلق على حساب الآخرين ، ونقول لهؤلاء جميعاً : أشفق على

(١) «إباحة التحلي بالذهب المحلق للنساء والرد على الألباني في تحريمه» للشيخ إسماعيل بن محمد الأنصاري (ص٨٣) .

الرأس لا تشفق على الجبل ، وما يضير السحاب نباح الكلاب» !![1] .

ولنا وقفة:

ترى ما الدافع لهؤلاء لفعل ما فعلوا إلا الحسد والحقد .

هل كان بينهم وبين الألباني ثأر أو مغالبة على دنيا؟

هل سحب الألباني بساطاً من أبسطة الدنيا كانوا يفترشونه؟

هل نازعهم في مال أو جاه؟

الواقع أنهم غلبهم الحقد والحسد والتعصب البغيض ، حتى قالوا ما قالوا فيه ، ولو كانوا على منهج العلماء لقارعوه بالحجة المتأدبة ، وباللسان العف كما سمعنا من سماحة العلامة (ابن باز) - رحمه الله تعالى - وهو يرد بعض ما لا يراهُ صواباً من كلام الألباني بقوله : أخونا العلامة الألباني أخطأ في هذه المسألة بدليل كذا وكذا ، أو قوله : هذا ليس بصواب ولعل أخانا الشيخ الألباني أن يراجع المسألة ، ونحو ذلك من الأقوال التي تدل على علم صاحبها واحترامه للعلم الذي يحمله الشيخ الألباني .

أترى هذه المواقف من المخالفين خلت من الحسد والحقد والتعصب؟

إن لم يكن الدافع لهم هذا فلا يدرى ما الدافع ، فليس القوم أو جلهم بأهل خير وحق حتى يغاروا على الحق كما زعموا !!

اللهم غفرانك . . . اللهم غفرانك .

قال الإمام ابن القيم :

«سمعت شيخنا يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً، ثم يخرج إليهم».

«روضة المحبين» (ص٥٣٠) .

(١) لو كان هؤلاء أرادوا الرد العلمي لكان لهم منا الذكر الحسن ولو خالفونا في الرأي ، بل لشكرهم محدث الشام وعلامة الدنيا على ذلك ؛ لكنهم أكل قلبهم الحقد والحسد فصار سباباً وقذفاً وشتماً ؛ فمعاملتهم بمثل فعلهم عدل لا ظلم ، والله المستعان .

الحلقة الثانية

الدعوة السلفية

أصولها.. مقاصدها.. أسباب النهوض بها

● بقلم: العلامة الألباني رحمه الله

نحن نعتقد جازمين : أن كل من يدعي دعوى ، لا بد أن يقرن دعواه بالدليل ، والملاحظ : أن هناك صحوة عامة وصحوة خاصة ؛ الصحوة العامة تشمل كل المسلمين والذين كانوا من قبل من الغافلين ؛ فربتهم الحوادث والتجارب ـ سواء كانت تجارب شخصية أو جماعية ـ أنه لا بد للمسلمين من أن يعودوا إلى دينهم ؛ فعاد الكثيرون منهم إلى دينهم ؛ لكن إلى كلمة الدين بالمفهوم العام ، والذي يهمنا المفهموم الخاص في الدين ؛ وهو كما قال رسول الله ﷺ : «ما أنا عليه وأصحابي . هذا الفهم الخاص هو الذي يُغير المؤمنين ، وهو الذي يخلصهم من هذا الذل الذي أصابهم وران عليهم ، لما وُجدت هذه الصحوة بدأنا منذ عهد قريب جداً نسمع ممن كنا لا نسمع منهم من قبل كلمة الكتاب والسنة ، إنما كنا نسمع منهم كلمة الإسلام والدين ومن الكلمات العامة ، أما الرجوع إلى الكتاب والسنة ؛ فأصبحت (موضة) العصر الحاضر ؛ أي : إن بعض الجماعات التي لا تتبنى الإسلام ديناً وسياسة يقولون : نحن على الكتاب والسنة ؛ لأنهم ليس عندهم من المعرفة بالكتاب والسنة إلا ما يشترك معهم عامة الناس أما أن يكونوا عندهم علم تفصيلي أولاً بالخلافات التي توارثناها في هذه القرون الطويلة ، ثم معرفة الراجح من المرجوح من هذه الموروثات ؛ هذا في الواقع لا نكاد نجد أحداً من هذه الجماعات من يقوم بتحقيق ذلك إلا من ينتهي إلى أهل الحديث وإلى أهل السلف ،

ولذلك ، ففاقد الشيء لا يعطيه .

وكل جماعة ـ الآن ـ تدعى أنها على الكتاب والسنة ؛ لأنه صار معروفاً ـ عند جميع المسلمين أن الدعوة إلى الكتاب والسنة هو الإسلام ؛ فلم يعد يتمكن أحد من الدعاة مهما كان اقترابه أو ابتعاده عن منهج الكتاب والسنة أن يغضّ النظر عنها ؛ فإذا ما ادعى مُدَّعون أنهم على الكتاب والسنة قلنا لهم ذلك ما نبغي أولاً ، وهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ثانياً .

ونحن في حدود ما علمنا وأطلعنا من الجماعات الموجودة يُطلق عليهم اسم (أهل الحديث) أو اسم (أنصار السنة) في بعض البلاد أو (السلفيين) في بلاد أخرى وهكذا ؛ أما الذين ينتمون إلى جماعات أخرى لا يتردد على ألسنتهم الاستدلال بالكتاب والسنة في كل شؤون حياتهم الذاتية الشخصية أو العامة أو الفكرية أو السياسة أو نحو ذلك ، ما نجد عندهم من يدندن دائماً حول الكتاب والسنة ، لكن هاتوا ما عندكم من دليل على أنكم على الكتاب والسنة ؛ فلا يجدون جواباً .

إن بين أيدينا الآن مثالاً قريب العهد ومؤسفاً في آن واحد ، هذا الغزالي المصري هو لا يتبرأ من الكتاب والسنة ، ولا يقول : أنا لا أدعو إلى الكتاب والسنة ، لأنه لو قال ذلك انفضح أمره ، وانكشفت سريرته ، فهو يقول بذلك ، ولكن ماذا يعني من قوله هذا؟ إن كان من السنة ، فهي السنة التي صحت عنده في منظاره الشخصي والعقلي وليس ما صحّ عن علماء الحديث الذين كرّسوا حياتهم طيلة هذه القرون الطويلة لمعرفة السنة الصحيحة من الضعيفة .

مثل هذا الإنسان وأمثاله كثيرون ـ مع الأسف الشديد ـ لا يقيمون لهذه الجهود العلمية في خدمة السنة وزناً ؛ كل ما في الأمر الحديث الذي يوافق هواه أو منطقه أو ثقافته فهو الصحيح ، وما خالف ذلك فهو الضعيف ، ولو أخرجه البخاري ومسلم ، ولو اتفقت الأمة على تلقي هذا الحديث بالقبول . فالسنة عنده تبع لهواه ، والقرآن يُفسره ـ أيضاً ـ تبعاً لهواه ، الفرق عنده : أن القرآن لا يجرؤ أن يقول هذا لا يصح ، لكن يقول هذا الفهم لا يصح بينما هذا الفهم هو الذي جاءنا عن الصحابة وعن السلف ، أما الحديث فما أجرأه على الإنكار ؛ لأنه أهون وأخف معول عنده في هدم السنة أن يقول كما يقول غيره من الدعاة ـ زعموا ـ : هذا حديث آحاد ، وحديث الآحاد لا تثبت به عقيدة ، ولذلك تُردُ بهذا المعول وتُهدم أحاديث صحيحة لا إشكال عند علماء الحديث في صحتها ؛ فإذاً ليس المهم إدعاء طائفة من الناس أو حزب أو جماعة من الناس أننا على الكتاب والسنة ، لأننا نقول لهم :

نريد أفعالاً ، ولا نريد أقوالاً ، هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، ونحن نعلم أن الجماعات التي تنتهي إلى أسماء معينة أو أحزاب سياسية أو نحو ذلك ؛ فهذه لا تهتم بدراسة السنة إطلاقاً ، بل قد يصرحون بأن هذه الدراسة تُفرق الأمة وتفرق الجماعة ، وأن البحث في أن هذا الحديث صحيح أو غير صحيح ، وأن هذه سنة وهذه بدعة ، هذا سابق لأوانه ؛ فبعضهم يقولون ـ في مثل ذلك ـ : هذه ليست من اللباب ، إنما هي من القشور !!

فلا شك ولا ريب أن الدليل الناهض على أن الذين يصدق عليهم أنهم من الفرقة الناجية ـ كما جاء في الحديث الصحيح ـ إنما هم الحريصون على فهم الكتاب والسنة في كل شؤون حياتهم ويطبقون ذلك حسب قدرتهم وطاقتهم ، ومن علامة هؤلاء أنهم لا يتحزبون لحزب واحد ، ولا ينتمون لرأس واحد ، يأمرهم بما يشاء ، وينهاهم عما يشاء ، إنما مرجعهم كلهم إلى قول الله تبارك وتعالى : **﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾** .

فالفرقة الناجية هي فرقة أهل الحديث والسنة ، وليست هي أهل السنة والجماعة ، كما يقولون اليوم ؛ لأن هذا الاسم اصطلحوا على أن يدخلوا تحته الأشاعرة والماتريدية أخيراً يدخل أهل الحديث الذين ينبغي أن يُذكروا مقدماً وسلفاً بينما هؤلاء لا يتبنون الرجوع ـ كما نتبناه ـ إلى الكتاب والسنة وعلى منهج السلف الصالح ؛ أعني : الأشاعرة والماتريدية ، فهم من علماء الكلام الذين اضطروا أن يقولوا كلمة حق ، لكن يُراد بها باطل ، وهي قولهم : مذهب السلف أسلم ، لكن مذهب الخلف أحكم وأعلم ؛ إذاً نسبوا الجهل إلى السلف ، ونسبوا العلم إلى الخلف ؛ وهذا عكس لكل ما ذكرنا آنفاً ، ولغيره من النصوص .

فأهل الحديث هم أهل النبي

وإن لم يصحبوا نفسه أنفاسه صحبوا .

نسأل الله : أن يجعلنا من أهل الحديث العارفين بكتاب الله ؛ ثم بصحيح سنة رسول الله ، ثم العاملين بذلك على منهج أصحاب رسول الله ﷺ .

قال أبو العالية :

«ما أدري أي النعمتين عليّ أعظم؟ أن أخرجني الله من الشرك إلى الإسلام، أو عصمني في الإسلام؛ أن يكون لي فيه هوى».

بيان من هيئة كبار العلماء حول مسألة التكفير

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهداه ، أما بعد :

فقد درس مجلس هيئة كبار العلماء - في دورته التاسعة والأربعين المنعقدة بالطائف ابتداء من تاريخ ١٤١٩/٤/٢هـ - ما يجري في كثير من البلاد الإسلامية ، وغيرها من التكفير والتفجير ، وما ينشأ عنه من سفك الدماء ، وتخريب المنشآت ، ونظراً إلى خطورة هذا الأمر ، وما يترتب عليه من إزهاق أرواح ؛ فقد رأى المجلس إصدار بيان يوضح فيه حكم ذلك نصحاً لله ، ولعباده ، وإبراء للذمة وإزالة للبس في المفاهيم لدى من اشتبه عليه الأمر في ذلك ، فنقول وبالله التوفيق :

أولاً : التكفير حكم شرعي ، مرده إلى الله ورسوله ، فكما أن التحليل والتحريم والإيجاب إلى الله ورسوله ، فكذلك التكفير ، وليس كل ما وصف بالكفر من قول أو فعل ، يكون كفراً أكبر مخرجاً عن الملة .

ولما كان مرد حكم التكفير إلى الله ورسوله ؛ لم يجز أن نكفر إلا من دل الكتاب والسنة على كفره دلالة واضحة ، فلا يكفي في ذلك مجرد الشبهة والظن ، لما يترتب على ذلك من الأحكام الخطيرة ، وإذا كانت الحدود تدرأ بالشبهات ، مع أن ما يترتب عليها أقل مما يترتب على التكفير ، فالتكفير أولى أن يدرأ بالشبهات ؛ ولذلك حذر النبي ﷺ من الحكم بالتكفير على شخص ليس بكافر ، فقال : «**أيما امرىء قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال؛ وإلا رجعت عليه**» .

وقد يرد في الكتاب والسنة ما يفهم منه أن هذا القول أو العمل أو الاعتقاد كفر، ولا يكفر من اتصف به، لوجود

مانع يمنع من كفره، وهذا الحكم كغيره من الأحكام التي لا تتم إلا بوجود أسبابها وشروطها، وانتفاء موانعها كما في الإرث، سببه القرابة ـ مثلاً ـ وقد لا يرث بها لوجود مانع كاختلاف الدين، وهكذا الكفر يكره عليه المؤمن فلا يكفر به.

وقد ينطق المسلم بكلمة الكفر لغلبة فرح أو غضب أو نحوهما فلا يكفر بها **لعدم القصد**، كما في قصة الذي قال: «اللهم أنت عبدي، وأنا ربك»؛ أخطأ من شدة الفرح.

والتسرع في التكفير يترتب عليه أمور خطيرة: من استحلال الدم والمال، ومنع التوارث، وفسخ النكاح، وغيرها مما يترتب على الردة، فكيف يسوغ للمؤمن أن يقدم عليه لأدنى شبهة.

وإذا كان هذا في ولاة الأمور كان أشد؛ لما يترتب عليه من التمرد عليهم وحمل السلاح عليهم، وإشاعة الفوضى، وسفك الدماء، وفساد العباد والبلاد، ولهذا منع النبي ﷺ من منابذتهم، فقال: «**إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان**». فأفاد قوله: «**إلا أن تروا**»: أنه لا يكفي مجرد الظن والإشاعة. وأفاد قوله: «**كفراً**» أنه لا يكفي الفسوق ولو كبر؛ كالظلم وشرب الخمر، ولعب القمار، والاستئثار المحرم. وأفاد قوله: «**بواحاً**»: أنه لا يكفي الكفر الذي ليس ببواح؛ أي: صريح ظاهر. وأفاد قوله: «**عندكم فيه من الله برهان**»: أنه لا بد من دليل صريح، بحيث يكون صحيح الثبوت، صريح الدلالة، فلا يكفي الدليل ضعيف السند، ولا غامض الدلالة. وأفاد قوله: «**من الله**»: أنه لا عبرة بقول أحد من العلماء مهما بلغت منزلته في العلم والأمانة إذا لم يكن لقوله دليل صريح صحيح من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ.

وهذه القيود تدل على خطورة الأمر.

وجملة القول: أن التسرع في التكفير له خطره العظيم؛ لقول الله عز وجل: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٣].

ثانياً: ما نجم عن هذا الاعتقاد الخاطئ: من استباحة الدماء، وانتهاك الأعراض، وسلب الأموال الخاصة والعامة، وتفجير المساكن والمركبات، وتخريب المنشآت، **فهذه الأعمال وأمثالها محرمة شرعاً بإجماع المسلمين**؛ لما في ذلك من هتك لحرمة الأنفس المعصومة، وهتك لحرمة الأموال، وهتك لحرمات الأمن والاستقرار، وحياة الناس الآمنين المطمئنين في مساكنهم ومعايشهم وغدوهم ورواحهم، وهتك للمصالح

العامة التي لا غنى للناس في حياتهم عنها .

وقد حفظ الإسلام للمسلمين أموالهم ، وأعراضهم ، وأبدانهم ، وحرم انتهاكها ، وشدد في ذلك ، وكان من آخر ما بلَّغ به النبي ﷺ أمته ، فقال في خطبة حجة الوداع : «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام؛ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا**» . ثم قال ﷺ : «**ألا هل بلغت؟ اللهم؛ فاشهد**» . متفق عليه .

وقال ﷺ : «**كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه**» .

وقال عليه الصلاة والسلام : «**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**» .

وقد توعد الله سبحانه من قتل نفساً معصومة بأشد الوعيد ، فقال سبحانه في حق المؤمن : ﴿**وَمَن يقتُلْ مُؤمناً متعمداً فَجزاؤُه جَهَنَّمُ خالداً فيها وغَضِبَ اللهُ عليهِ ولَعَنَهُ وأعدَّ له عذاباً عظيماً**﴾ [النساء : ٩٣] ، وقال سبحانه في حق الكافر الذي له ذمة في حكم قتل الخطأ : ﴿**وَإن كانَ من قومٍ بينكم وبينهم ميثاقٌ فَديَةٌ مسَلَّمةٌ إلى أهله وتَحريرُ رَقَبَة مؤْمنة**﴾ [النساء : ٩٢] فإذا كان الكافر الذي له أمان إذا قتل خطأ فيه الدية والكفارة ، فكيف إذا قتل عمداً ، فإن الجريمة تكون أعظم ، والإثم يكون أكبر . وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة**» .

ثالثاً : إن المجلس إذ يبين حكم تكفير الناس بغير برهان من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وخطورة إطلاق ذلك ، لما يترتب عليه من شرور وآثام ، فإنه يعلن للعالم أن الإسلام بريء من هذا المعتقد الخاطىء ، وأن ما يجري في بعض البلدان من سفك للدماء البريئة ، وتفجير للمساكن والمركبات والمرافق العامة والخاصة ، وتخريب للمنشآت هو عمل إجرامي ، والإسلام بريء منه ، وهكذا كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر بريء منه ، **وإنما هو تصرف من صاحب فكر منحرف، وعقيدة ضالة؛ فهو يحمل إثمه وجرمه، فلا يحتسب عمله على الإسلام، ولا على المسلمين المهتدين بهدي الإسلام، المعتصمين بالكتاب والسنة، المستمسكين بحبل الله المتين، وإنما هو محض إفساد وإجرام تأباه الشريعة والفطرة** ؛ ولهذا جاءت نصوص الشريعة قاطعة بتحريمه محذرة من مصاحبة أهله . قال الله تعالى : ﴿**ومن الناس من يعجبكَ قولُهُ في الحياة الدنيا ويُشهد الله على ما في قَلْبه وهوَ ألَدُّ الخصام. وإذا تولَّى سَعَى في الأرض ليُفسدَ فيها ويهلِكَ الحرث والنَّسلَ والله لا يُحبُّ الفَساد. وإذا قيل لهُ اتَّق الله أخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثْم فَحسْبُهُ**

جهَنَّمُ ولَبئْسَ المهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦].

والواجب على جميع المسلمين في كل مكان التواصي بالحق، والتناصح والتعاون على البر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**وتَعاونوا على البرِّ والتقْوى ولا تَعاونوا على الإثْمِ والعُدوان واتقوا الله إن الله شديد العِقاب**﴾ [المائدة: ٢]، وقال سبحانه: ﴿**والمؤمنون والمؤمناتُ بعضهم أولياءُ بعض يأمُرون بالمعروفِ وينهونَ عن المنكر ويُقيمون الصلاة ويؤتونَ الزكاة ويُطيعونَ الله ورسولهُ أولئكَ سَيَرْحمهم الله إن الله عزيز حكيم**﴾ [التوبة: ٧١].

وقال عز وجل: ﴿**والعصر. إن الإنسان لفي خسرٍ. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾ [سور العصر، كاملة].

وقال النبي ﷺ: «**الدين النصيحة**». قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**»، وقال عليه الصلاة والسلام: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**».

والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

ونسأل الله سبحانه بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى: أن يكف البأس عن جميع المسلمين، وأن يوفق جميع ولاة أمور المسلمين إلى ما فيه صلاح العباد والبلاد وقمع الفساد والمفسدين، وأن ينصر بهم دينه، ويعلي بهم كلمته، وأن يصلح أحوال المسلمين جميعاً في كل مكان، وأن ينصر بهم الحق، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

عن البراء بن عازب قال:

كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة نجلس على شفير القبر؛ فبكى حتى بلّ الثرى، ثم قال:

«يا إخواني! لمثل هذا فأعدُّوا».

رواه ابن ماجه بسند حسن

الهـــوى

● بقلم: التحرير

كل من دخل من أمة محمد ﷺ في هوى من الأهواء ورآه، وذهب إليه؛ فلا يرجع أبداً عن هواه إذا كان قلبه مشرباً به، وقد أفصح الشاطبي - رحمه الله - في كتابه الفذ «الاعتصام» عن مواصفات هؤلاء، ومما قال في ذلك:

١- «إن صاحب الهوى إذا دخل قلبه، وأشرب حبه، لا تعمل فيه الموعظة، ولا يقبل البرهان»[١].

٢- «إنه لا يكترث بمن يخالفه»[٢] مهما بلغ شأنه.

٣- «إنه لا يعبأ بعذل العاذل فيه»[٣].

٤- «إن الذي أشربها من شأنه أن يدعو إلى بدعته؛ فيُظهر بسببها المعادات»[٤].

٥- «إن بدعته قد أعمت بصره، وأصمّت سمعه»[٥].

٦- «إن من أشربها ناصب عليها بالدعوة المقترنة بالخروج عن الجماعة والسواد الأعظم، وهي الخاصية التي ظهرت في الخوارج، وسائر من كان على رأيهم»[٦].

هذه هي الأوصاف الخطيرة لأهل الأهواء والبدع ممن لا ترجى لهم توبة، ولا ينتظر منهم أوبة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

(١) «الاعتصام» (٢/٢٦٨). (٢) «الاعتصام» (٢/٢٦٨). (٣) «الاعتصام» (٢/٢٧٠).
(٤) «الاعتصام» (٢/٢٧٣). (٥) «الاعتصام» (٢/٢٧٣). (٦) «الاعتصام» (٢/٢٧٣).